الشمس

فى

برج المحاق



محمد روميش

المجلس الأعلى للثقافة

الشمس في برج المحاق

محمد روميش



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

روميش، محمد .

الشمس فى برج المحاق تأليف : محمد روميش

القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة ، ط٣، ٢٠٠٨.

١٦٠ ص ؛ ٢٠ سم

١- القصص العربية القصيرة

أ - العنوان ٨١٣,٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٣٥٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-851-2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El- Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084

إهداء

إلى :

يحيى حقي

الأب والأستاذ والصديق.

محمد روميش

الفهرس

الضـــوء

أول يناير ١٩٦٥- مجلة المجلة

بعث بنظره إلى الخارج من نافذة القطار المنطلق ... غاصت عيناه فى جبال الظلام .. سحب ناظرتيه مرهقتين ... أخرج علبة أسبرين اشتراها من سوق غزة بالعتبة ... فض شريطًا منها .. تحت ضرسه الأيسر، دس حبتين ، وضغط بشدة ... فتح الجريدة مرة أخرى ... تأمل العنوان ... دفع بكميات اللعاب المحمّل بالأسبرين إلى بلعومه ... الأسبرين كالبيرة لا يسيغه إلا أهل الخبرة .. عنوان الجريدة ليس بالحبر ... طائرات تضرب فيتنام بالصواريخ ... أحداث فى خليج تونكين ... تململ فى مقعده ... خليج السويس . خليج الخنازير. خليج تونكين ... أدخل يده إلى جيوبه جميعًا ... أرسل بصره إلى الجزء الواقع أمامه من عربة القطار وشده لا يحمل شيئًا .. عربة ضيقة خانقة .. تطلع مرة ثانية خارج العربة .. لم تنفذ عيناه إلى أكثر من البصيص المنبعث من شباك العربة .. الظلام غطى كل المرئيات .. عيناه محبوستان .. أين ميدان العتبة؟ يقطع الطريق ضغطًا على قدميه حتى العباسية .. العربة لا تحتمل واحداً من مشاويره التى تهيئه للنوم .. بلا توقع حتى منه هو ، هب واقفًا .. هم بالجلوس لكنه تراجع .. لم فعل ذلك ؟ وفيم كان

وقوفه .. تصرف غير مبرر لجيرانه فى المقعدين المتقابلين على الأقل .. نظر إليهم من أعلى .. في نهاية المقعد المقابل لمقعده، واحد منصرف إلي كتاب .. باقى الجيران يتضاحكون .. أمره إلى الله .. سحب حقيبته وجلس واضعًا إياها على ركبتيه .. فتح الحقيبة وسحب كتابًا عن «جوجان» وخيَّم عليه التردد .. القراءة فى حياة رسام هرب من عائلته ووطنه وهاجر قارته كلها إلى المحيط فى الجنوب فوق العشرين عامًا ، ليرسم الضوء، ليست بالاختيار الموفَّق، ولايجب - رغم كل شىء - أن نضع القطن المندوف، وهو ما يعتقد أن مخه داخل رأسه كذلك، فى مهب العاصفة ... وقلب فى الحقيبة وأمسك بكتاب ثان .. « الصراع بين الصين والاتحاد السوفييتى» .. حسن إذن .. هذه دراسة مركزة تعيد الانتباه إلى المخ .. وسحب الكتاب .. وقلب صفحاته، صدته الأرقام والجداول ... أعاد الكتاب وأغلق الحقيبة ... قام بكل تؤدة ووقار .. حسبما ظن .. وضع الحقيبة مكانها أعلى الرءوس ... حسن .. هو الآن رجل عاقل لايأتى أفعالاً بلا هدف .. أعماله مبررة فى نظر المجتمع الصغير الذى يجالسه ... على المجتمع إذن أن يسمح له بممارسة عادته ... ليست ضارة ولا مؤذية ... بعض الناس يرتاح إلى العطس فيحمل علبة النشوق .. بعضهم يسوك بالنشوق أسنانه وإن بدا مؤذيًا .. أخرج علبة الأسبرين .. حبتان أخريان قبل أن يستغرق فى النوم .. طحن الحبتين .. الأسبرين كالبيرة .. النوم يا إله النوم .. إنه

يسلك سلوك الناس المحترمين، فلم لا تعامله الطبيعة معاملتهم ؟ بعض الناس يضع رأسه على كتفه وينعس وهو سائر في الطريق .. واحد من جيرانه تدلّى رأسه على صدره ويصدر عنه شخير مكتوم .. يداعب نفسه إذن بمطلب النوم .. تك .. تك .. تك .. رتم رتيب .. صوت ارتطام عجلات القطار في حوافٍّ فجوات القضبان .. نزل أسفل عربات القطار يشاهد عملية الارتطام .. العجلة ضخمة إطارها أبيض لامع .. باقي العجلات تغطيه طبقة من التراب الملتصق بالشحم .. العجلات تفر مذعورة .. متتابعة بلا توقف أو تلكُّؤ .. ولا تخاف الارتطام .. لا تخاف حتى أن تهوى في الفراغ .. كتل حديد عمياء تندفع .. في المقدمة .. يقف الأسطى « فارس » الأحدب .. يسحب نفساً عميقاً من سيجارته .. وثمة شعيرات بيضاء قد نفرت من شعر حاجبيه .. وأحس بدوار شديد .. النوم أمل مفقود . تذكر أيام كلية الفنون .. خطابه إلى سلامة موسى .. لقاءهما .. تستطيع أن تتغلب على الأحلام الخانقة بالتفكير في الزهور قبل النوم .. لا بأس .. فكرة جميلة تخفف الدوار .. ابتسم .. علاج الزهور للأحلام الكابسة .. وهو ليس في حلم .. على أية حال .. من يدرى؟ هو هامد فعلاً .. يتصل بالعالم الخارجي خلال جسده كله .. لا يتحكم في مجرى تفكيره .. الحياة تقوم بوظائفها في جسده بعيداً عن مجال الإرادة .. هناك في طرف ساقه الملقاة أمامه أسفل الكرسي المقابل .. داخل الحذاء، حرك

إصبعًا من أصابع قدمه اليسرى حركة خفيفة .. هو يقظ إذن ولم ينم
بعد .. عليه كل مسئوليات اليقظة .. عليه أن يبحث عن فكرة جميلة ..
ابتسم مرة ثانية .. فكرة جميلة .. لم؟ نسى تمامًا .. كان يذكر الجملة
وحدها .. فكرة جميلة .. كيف ولدت الجملة؟ وما موضعها من سياق
فكره ؟ ضاع كل ذلك .. ضياع شعلة عود كبريت انطفأت .. قرر مبدأ
أن يرفق بنفسه ولا يرهقها .. البحث عن فكرة جميلة ، فى حد ذاته،
فكرة جميلة .. خطاب إلى فاطمة .. برزت مرسومة فى ذهنه .. ك ..
« الشرطة فى خدمة الشعب » .. همَّ أن يقف لإنزال الحقيبة وإخراج
ورقة والبدء فوراً فى تحرير خطاب .. نظر إلى الجيران .. يرقبونه ..
ما أهمية ذلك؟ عليه أن يكون إيجابيًا .. مضت عشر سنوات يدرب
نفسه وما زال فى التمرين .. يلزم كتابة خطاب إلى فاطمة .. يفسر لها
كل شىء .. هذه خطيبته وكان الأمس موعد عقد القران .. برز داخله
احتجاج على أن خطابه يجب أن يفسر كل شىء .. كل شىء لا يمكن
أن يكون مفسَّراً .. هذه مطاردة لا داعى لها .. خطاب إلى فاطمة يفسر
ما يستطيع تفسيره ويلقيه فى صندوق بريد محطة أسوان .. أحس
بهزة .. أسوان .. أسوان الضوء .. أين قرأ ذلك قبلا ؟! أين ؟! أوه ..
للعقاد . كاد الرجل – فى أخريات حياته – أن ينسينا أنه كاتب
أسوانى .. أسوان مدينة الضوء .. النور فيها يضىء كل شىء ..
لوحة .. درس الفنون ولفظته الكلية .. ومضت السنوات وما استيقظت

داخله هذه اللوحـة.. ورغب أن يتـوقف عـن الاسـتطراد .. فـى انتظار خطاب يجب أن يكتبـه ويلزم لذلك أن يقف لإنزال الحقـيبـة .. لا داعى للوقوف مرة ثانية .. ما قـيمة الكلمات إذا كان كل شىء قد تهدم أى شـيطان ألقى بك يا فـاطمـة فى رأسى ؟ لا بأس .. هذه آخر حـماقـة أرتكبها فى حقك .. أصررت دائمًا أن أناديك .. فاطمة .. على أساس أننا سنقيم حياة مشتركة .. وهذه - لا تؤاخذينى - شرطها الصدق .. وهو لا يتجزأ .. كيف أناديك ؟ تومة .. أولاً هو اسم ثقيل .. وأقسم لم أكن أناديك .. فاطمة عناداً .. هذه تهمة ..

- تسمح الجرنان .. شغلت عنه ونحن فى أسيوط .

.. طفا من القاع دهشًا .. الجالس فى طرف المقعد المقابل أسند ظهره ورأسه إلى الخلف قليلاً .. عيناه مغمضتان .. وقد ألقى صاحباه رأسيهما إلى الأمام :

- نام صاحباك .. هذه خدعة ..

- خدعة مرة واحدة ..

- ما اقصدش بالضبط عملية خداع .

ناولته الجريدة .. قرأ الآخر .. العناوين الكبيرة .. ارتفع حاجباه ...

- ياه .. مش معقول ..

وهو يتأمل حاجبى الآخر المرتفعين ، وقسمات وجهه المليئة ..

- لا .. معقول .. معقول ونص ..

.. هذا إنسان لا تروق صحبته .. انسحب إلى داخله ، تملؤه فكرة الخطاب .. أين وقفنا ؟ .. فاطمة تغضب لمناداتها باسمها الثابت فى شهادة الميلاد ... لا يهم .. أنت تذكرين آخر لقاء لنا قبل أن نتفق على عقد القران ونحدد موعده ... شرحت علاقتى بالإنسانة التى ارتبطتُ بها قبلاً .. صارحتك أننى أحببتها .. كنت خبيثة إذ طالبتنى أن أفصل دلائل حبى لها .. أصارحك الآن .... سؤالك أيقظنى .. قلةٌ هُمُ الناس الذين نتحدث إليهم ونحن نيام ، لا تبالى ما ينفلت من قول لا تسيطر عليه الإرادة ولا يخضع للرقيب ... كنت أحدثك غافيًا .. شكنى سؤالك .. فاطمة .. إنها مهمة البوليس وحده .. محاولة الحصول من الناس على أكثر مما يريدون الإفضاء به .. بدأت أنتقى لك كلماتى .. هى تخطت أكثر من عائق لترتبط بى .. فى غيبة أبيها وأسرتها وفى غيبة مقومات أى زواج سوى رغبتنا المشتركة .. محاولتك الدائبة لتقصِّى كل كلمة أفزعتنى .. أفضيت إليك .. بما أحسبه خلاصة التجربة .. كانت تطاردنا معًا فكرة الحواجز التى داستها هى ..

- الكنبة أين توضع ؟

- هنا.

- لا .. هنا.

- لا .. هنا.

لا يجب أن يتحول البيت إلى حلبة مصارعة .. انتهت الجولة بانسحاب الطرفين .. هى محامية بمكتب أبيها ببلبيس .. أنا خطة تفرغى للفرشاة خمس سنوات كاملة .. أستجم من ملايين الأشياء التى حرقتنى .. أجرب الراحة والعمل .. لكن الراحة ممنوعة .. المباح مشاوير العباسية - العتبة - وبالعكس .. واستهلاك أسبرين يكفى لعلاج قريتنا - كفر ششتا - بأكملها .. أن توضع الكنبة هنا .. أو هنا.. ما أهمية ذلك؟ لكن أن أدفع بها داخل التاكسى فى الثانية بعد انتصاف الليل ليذهب بها إلى الجحيم .. نتيجة لمقدمة أخرى - فى ذلك اليوم الحافل - غير الاختلاف على تحديد موضع الكنبة ... بل إنها - وبعض الظن إثم - نتيجة لمقدمة أخرى - كذلك - غير حديث الست بثينة رئيسة القسم وغمزها مهددة إياى .. أن هذه اللوحات التى أقدمها، تصلح لشىء آخر غير مجلة نسائية تدخل البيوت المحترمة وتبهج قارئاتها.. لا .. لا يا ست بثينة .. أقسم جاداً أننى أريد أن آكل عيشًا وأريدك أنت الأخرى أن تأكلى وتشربى ما تشائين.. وأقسم بحق المعهد الذى تقيأنا معًا .. أننى لا أحمل للمجلة نوايا عدوانية ..

وأعدك - بحق تلال كفر ششتا - أن أقدم حاجات تفرح الرقيقات .. حبتان أخريان من الأسبرين .. أقسم يا فاطمة لك .. أننى نفسى قد نسيت .. نسيت تمامًا أنى قد نعست عصر ذلك اليوم .. وأنى هببت مذعوراً .. كنت أجرى داخل فترينات شارع قصر النيل .. لا أتذكر تمامًا .. إلا أننى كنت أخرج من فترينة لأدخل أخرى .. الناس الكثيرة مرصوصة فى الشارع تحدق إلى الفترينات .. وأكتشف أنى عريان .. أحاول تغطية جسدى بما فى الفترينات من قماش باهر .. القماش يتحول إلى خواتم وبروشات وأقراط وتسقط من جسدى .. يدى لا تكاد تسترنى .. شىء لا أذكره يمنعنى من السيطرة عليها .. أرفع ذراعى فلا أكاد أبصرها .. ضباب كثيف يملأ كل شىء .. شفاه حمراء مرصوص داخلها أسنان فى بياض أسنان الست بثينة .. تضحك .. أصابع طويلة ناعمة فى طرفها ظفر مطلى بدم .. أحس لا أعرف كيف .. أنه دم عينى .. أصرخ مختنقًا .. حلم .. يجب أن أستيقظ لكن الفترينات طويلة .. الرجل العارى بداخلها يجرى .. وفى ميدان سليمان .. تل كبير هو الذى يتوسط كفر ششتا .. الأطفال كلوحة صامتة يقضون حاجاتهم .. تمثال سليمان باشا فوق التل .. التل ..

- اتفضل الجرنان..

ويلتفت مبهور الأنفاس ..

- أي جرنان ؟

- جرنانك يا أخي .. إيه!

- شكراً.

- يستاهلم.

- مين ؟

بتشفٍ شديد .. ويضغط على الحروف :

- الناس اللى خدوا العلقة دول.

- عندك حق ..

وفتح جفنه الذى يجلس فى طرف المقعد .. أسمر مصمت .. يسأل ..

- دى .. رأيك فعلاً ؟

- الحقيقة مش رأيى ..

- ليه ما تبديش رأيك .. وتدافع عنه كمان؟

- صاحبنا بيوافق اللص على حرق أهل الدار اللى بيسرقها .. مش معقول هاغيِّر رأيه فى قعدة سفر ..

- لازم يعرف - على الأقل - إن فيه رأى يخالف رأيه .

.. واستلم الأسمر المصمت الخشن .. الأبيض المترهل الناعم .. وتناثرت الكلمات، ٢٩ أكتوبر .. بحيرة المنزلة .. كوبرى الفردان .. مطار الجميل .. خليج تونكين .. أيها المصمت الخشن المتفرغ .. لك الله .. ولى حبات الأسبرين .. الأسمر بدل المظلة فوق المجتمع الصغير .. دفء وحرارة .. قوالح الذرة المتوهجة فى القاعة فى كفر شِشتا .. قام بلا تردد .. أنزل الحقيبة .. أخرج ورقة أسندها على الحقيبة .. حق لفاطمة أن تصلها رسالة .. وقعت فى مأزق حرج .. خارج النافذة .. حبال رفيعة وسط الظلام .. أحس بانقباض حط فوق صدره ، هم أكبر من الجبل الممتد على يساره والذى صاحبه يومًا كاملاً بالقطار .. لم يكد يصدق نفسه .. فعلة شنعاء لا كلام .. يصرخ مناديًا الأسطى « فارس »، أن عد بنا إلى القاهرة - أدرْ وجه المطية يا رجل .. القطار ينطلق مسرعًا .. النهار يطلعنا على سوآتنا .. الليل بكل وحشته ، إلهة غفور .. الأخت فاطمة .. الكلمات تعوزنى حقًا .. ما قيمة الكلمات؟ ما قيمة الاعتذار؟ لا أعتقد رغم كل شىء أنك ستمزقين رسالتى قبل قراءتها .. وما دمت ستقرئينها .. لى رجاء .. أن تصدقينى .. استيقظت بالأمس .. صباح الخميس .. صدرى الذى كان دومًا قطعة كبيرة من برميل البلك .. كان ثمة شرخ مضاء داخله .. أخيراً سوف أستقر .. أعيش وأرسم فى رعايتك .. قررت أن لا أذهب

إلى المجلة ذلك اليوم .. يوم عقد قرانى .. وقد سعيت إلى المعهد الذى أحببته - كلية الفنون - وحضنت الزملاء فى حماسة وتأملت الوافدين الجدد .. دماغى الذى كان يؤلمنى ثقله دائمًا .. أحسسته صباح الخميس خفيفًا .. فى عروقى دم كان يجرى وليس طينًا وهبابًا .. الحياة تضيق حقًا أمام لحظة فرح .. وكما يهرع الفلاح الوافد إلى القاهرة إلى السيدة زينب وسيدنا الحسين .. أحسست بحاجتى إلى عودة لمتحف مختار .. وقفت للمرة الألف أمام تمثال « ابن البلد » .. ألف حوله .. ألف حوله .. وأدور وأتحسسه .. مبصراً ومغمضًا عينى .. ليست الروح .. ليست الحركة الذاتية .. ليس النماء الداخلى وحده ما يميز الحى عن الميت .. تمثال « ابن البلد » .. هل تذكرينه .. طالما جذبتك بعيداً عما حوله من تماثيل .. ماذا فى هذا التمثال؟ ما أضيع حياتى ! .. ما أبشع ما فعلته بى بثينة ! .. لا بأس .. لا بأس .. لم أكد أضع قدمى فى التاكسى مغادراً المتحف .. فى يدى صور لابن البلد .. بشموخه المتهامس المشمأنط ، حتى أحسست يداً تمسك بى :

- أمسك الهراب ..

محروسة .. الموديل .. القنطرة التى عبرها .. فنانون .. وسفلة .. وأفاقون .. وبثينة كذلك .

- ازيك يا محروسة؟ واحشانى والله يا بت.

- لسه تايه .. ما تفوق يا بنى آدم.

ومددت لها يدى بصورة لابن البلد ودسست الأخرى فى جيوبى أخرج شيئًا ..

- إنت رايح فين ؟

كان أمامى فسحة من الوقت .. لم أعرف يقينا كيف أقضيها.

- مش عارف .. والله يا محروسة .. يمكن البيت ..

- محروسة .. محروسة .. اتمدن شوية يا فلاح .. اسمى سوسة .. فاهم ؟

وألقت بنفسها داخل التاكسى .. أضواء الطريق المتفتح داخل مكعب الأسفلت .. أطفئت .. امرأة داخل شقتى .. قرابة العام .. كان قد مضى، منذ دفعت بالإنسانة الأولى داخل تاكسى بعد انتصاف الليل .. السنين الخمس التى قررت التوقف فيها أتبين حقيقة مشاعرى إزاء نفسى والغير .. ذابت بين يديك أنت إلى عام .. على أية حال .. كانت الشقة .. شهادة لله .. مزبلة .. دورة المياه تغطيها طبقة محترمة من الطين .. أوراق تفرش أرضية الشقة .. لوحات مهوشة ملقاة فى كلٍّ ركن.. .. الأطباق والأكواب ألوان .. غابت محروسة أو سوسة كما تحب أن تنادى .. عادت مرتدية واحدة من بيجاماتى .. تحرك النور فوق المسرح

.. هذه هى الإنسانة الأولى .. وتذكرتها وقد لبست بيجامتى لأول مرة .. فى حجرة بسطوح إمبابة .. منذ عشر سنوات .. انسدَّ الطريق المفتوح داخل صدرى .. وإذ أمسكت محروسة بالمقشة .. لم تكن محروسة التى تقف أمامى .. كانت بثينة .. زوجتى الأولى .. تقف أمام فتحتَىْ عينى .. وعندما أعطيت البواب جنيهًا ، تدخلت محروسة وسمعتها ..

- هات علبة بلمونت كبيرة .. وعلبة بلوبيف كبيرة .. عشر بيضات ..

وأحسستها تنطق « كبيرة » لا كما ينطقها الناس .. تَوَزَّعَ الضوء .. بصيص فوق محروسة .. هالة قوية فوق الأخرى .. عانيت معايشة إنسانتين فى لحظات واحدة .. وقفت محروسة عارية أمامى تمامًا .. هذه المرة .. متدثرة ببيجامتى الصوفية .. بغىٌّ رغم كل شىء تنتقم .. لم أعتب .. إن بغيًا تحرق المدينة بما فيها . لتبقى بعد ذلك مغبونة .. هذا حقك يا محروسة .. أما الذى ليس من حقك .. وعفوا .. فمحاولة تقبيلى فى حضور من أحببت يوما ما ..

- إنت شارد ليه ؟

- أبداً.

- على .. إيه اللى ضايع منك ؟

تلفت حولي دون إجابة .. ماذا ضاع حقًا ؟ .. كانت الشقة مزدحمة .. زوجتي الأولى كانت تملؤها .. أقدامنا - محروسة وأنا - تغوص فيها .. كانت قوات وطنية تقاوم محتلاً بكل وجوده .. تفرقع هنا وهناك .. ولا تلمسها اليد .. وفي اللحظة التي وقفنا فيها - أنا ومحروسة - ملتصقين .. أغلقت عيني .. وبرزت هي زوجتي الأولى، في داخل دماغي بكل تفاصيلها .. فتحت عيني .. وقعتَا على شقة ليمونة معصورة .. كانت قد أفلتت من مقشة محروسة .. وإلى جوارها صرصار .. وقلت صادقًا..

- عفواً يا محروسة .. أسأت إليك ..

.. لم تجب محروسة .. خلتها جُبًا .. تزحف فيه الحيات والسحالي .. ينبعث منه صراخ مليون عبد من عبيد روما القديمة .. ساءني الشقاء، ارتسمت خيوطه باردة على ملامح محروسة .. لم أدرِ كيف أخفف عنها .. فجأة .. وقد داست آخر عقب من علبة البلمونت الكبيرة ..

- تعرف؟ كنت ها أقول لك .. ارسمني .

الإنسانية تطارد البغي داخلك يا محروسة .. لست كلك بغيًا .. سخرت محروسة بشدة من حماستي لرسمها .

- خفف عن نفسك شوية ..

- خففى انت عن نفسك ..

- أنا ؟؟

وشمخت بوجهها .. رافعة قسمات الجزء الأسفل وهابطة بقسمات الجزء الأعلى .. أو على وجه التحديد .. ثمة قسمات من الجزء الأسفل ومن الجزء الأعلى من الوجه صاعدة .. وقسمات أخرى من الجزأين - معًا - هابطة فى إطار حركة واحدة كلية مشمأنطة مطلة .. جزءاً من المليون من الثانية .. وعاد الوجه .. وجه محروسة .. بخيوطه الباردة تحتل قسماته .. أين قابلتنى هذه اللمحة الخاطفة؟ الذاكرة لا تسعفنى .. لو يسعدنى الحظ وأسجل هذه اللمحة من وجه محروسة .. لكن كيف؟ إن عمراً ينفق فى تسجيلها ليس ضائعًا على أية حال .. ابتسمت فى هدوء وقد همد حريق القاهرة ..

- خلاص .. الناس لما تيأس .. تقول .. يا حسن الختام .. لكن أنا يا لقمة العيش ..

عادت ريما إلى حالتها القدمية .. صدرى مكعب إسفلت .. الدم فى عروقى طين وهباب .. رأسى عجينة جبس .. تذكرت فجأة .. أن ذلك المساء .. مساء عقدنا .. سألنى سائق التاكسى .. إلى أين ؟ شقتكم الواسعة بأنوارها .. بسيداتها الرقيقات .. بشفاههن الحمراء والأسنان الناصعة البياض .. بالأصابع الطويلة المطلية الأطرف ..

بالمدعوين أبناء الناس سأغدو داخلها أنا وبعض أصحابى .. بقعة حبر شينى على الوجه صافية الألوان .. ثمة سبب آخر .. يجب أن لا أخفيه عنك .. ألم نتحدث عن شرط الصدق ؟ أحسست أنى خنتها هى ولم أخنك أنت .. عربة التاكسى تدوخنى فى شوارع القاهرة .. كفر ششتا .. قريتى الحبيبة .. ابنك يناديك يا كفر ششتا .. حميرك يا كفر ششتا تحمل راكبها إلى البيت .. ولو غفا فوقها .. على أنى لم أجسر على العودة إلى كفر ششتا .. عبد الفتاح أفندى رمضان سيفتح محضر التحقيق بعد أن يجمع الأم والأخوات :

- خير ؟!

- خير ..

- ساكت ليه ؟

- تعبان شوية..

- تعبان .. ولأ .. ؟

كيف أدخل دماغ هذا الرجل؟ صاحب وابور الطحين رب نعمته .. هذه حقيقة ..

- تصور لما يطردنى .. أعيش ازاى .. أنا وأمك وجرمق البنات ده؟

.. لكن - أيها الوالد - صاحب وابور الطحين كلمته ليست نصًا مقدسًا .. كل الفاتيكانات - يا والدى - راجعت نصوصها .. وأعيد باب الاجتهاد .. إذا أخبرك أن كلية الفنون تخرج نقاشين ومبيضين .. فالمسألة فيها - على الأقل - قولان .. وإذا أشار عليك بالحربية أو الحقوق فثمة طرق أخرى .. وإذا أصدر حكمه أن ابنك - الذى هو أنا - فاسد، فلم يقضِ فى الأمر بعد :

- أنا لو كنت ربيت عجول بقر كان أكسب لى ..

- ماتقول يا أستاذ هاتنزل فين ؟

- باب الحديد ..

.. حقيبة وملابس وكتب .. لكن إلى أين ؟ .. سرت .. دخلت مبنى المحطة .. بلاد الله ليست واسعة تمامًا.. إسكندرية - بالسماع - لا أطيقها صيفًا .. وقطع الحمال تذكرة إلى أسوان .. أبعد ما أستطيع الذهاب إليه .. ليس بعداً عنك .. قربًا مِمَّ ؟ لا أعرف ..!

.. سقطت أشعة الشمس فوق الحقيبة التى يستند إليها .. رفع رأسه فى مواجهة الضوء .. تخفف من عبء قد حط عليه .. تسللت أشعة الشمس إلى طاقتَىْ أنفه .. وعطس عطسة شديدة .. أغرقت الخطاب .. التفَتَّ فإذا الأسمر ينظر إليك هادئًا ..

كان واضحًا أنه وصل مع الآخرين إلى حد الخصام .. فوجوههم ملتوية عابسة .. لاتكاد تنظر إليه .. لكنه هو يبتسم .

- اكتبه مرة ثانية .

- يُكتب مرة واحدة .. كالحجاب .. ويتساوى أن يُكتب أوْ ..لا.

- يعنى مجهود ضائع .

- مش بالتحديد ..

- لايبدو أنك أسوانى .

- بلغة الشعر من وسط الدلتا .

- أتطفل لو سألتك عن وجهتك فى أسوان ؟

- مش تطفل منك .. لكن إحراج لى ..

- أنسحب إذن ؟

- لا ... لا .. يعنى .. ممكن إنك تقول .. حاجة كده .. جاى ارسم .. الضوء .. أنا .. لا مؤاخذة .. رسام .. قريت من زمان .. أسوان مدينة الضوء .. النور فيها م السماء للأرض .. واحد صاحبنا اسمه جوجان .. هرب من أوربة .. نزل جزر تاهيتى عشان يرسم الضوء.. أنا قلت .. أسوان .. يمكن أقرب ..

- أقدم لك نفسى .. رمزى سعد .. من العاملين فى السد العالى .

- تشرفنا ..

- إحنا فى حاجة لفرشاتك معنا .. تسجل كيف ينقل الإنسان الجبل ، ويصنع من صخوره سداً فى النهر !.

- أشكرك .. الست بثينة .. تحب دايمًا الرسم اللى يفرح .. المجلة بتدخل بيوت الناس المحترمين .

- مين الست بثينة ؟

- رئيسة القسم فى المجلة .. أصل أنا ..

- يا راجل .. تبقى معانا ..

- يعنى ..

- أيوه ..

* * *

النزيــف

١٩٦١ - جريدة المساء

فى اللحظة التى دلف فيها عبد السميع عبد الشافى المحامى إلى مكتب أستاذه برفقة بلدياته الشيخ فتح الله أبو خضر، كان ذهنه موزّعًا فى أكثر من ناحية، كان يناقش - أخلاقيًا - عمله بمكتب محام يكسب منه لقمة العيش ، وتقديمه الشيخ فتح الله، كزبون ، إلى مكتب محام آخر ...

وكان مع زوجته ، والضراعة أو التهديد الذى سمعه وهو يغادر البيت، فى طريقه إلى المكتب .. .. وما كان عبد السميع فى حاجة إلى ضراعة زوجته أو تهديدها حتى لا يطيل المكث فى الخارج فالمنطلق الأخلاقى، الذى يأخذ نفسه به ، لايسمح له أن يسرف فى الغياب عن زوجته المريضة، مع أنها ليست مريضة تمامًا أو على وجه الدقة لم يكن عبد السميع، المحامى، قد قرر بصفة نهائية، ما إذا كانت زوجته مريضة أم لا .. .. لكنه أكد لنفسه أنها تعانى ضعفًا عامًا وتحتاج، فضلاً عن التغذية الجيدة، إلى مركّبات الحديد والفوسفور وبعض الفيتامينات المقوّية للجهاز العصبى .. .. وانفتح السرداب ... إن أحلام مريضة

فعلاً .. .. إنها أكثر من مرهقة .. .. فنظرات عينيها، كثيراً ما تفزعه .. ولم يستطع أن يمنع نفسه من الربط بين التشرد البصرى، الذى يطل من عينَىْ أحلام، وبين التشتت الذهنى، وأكد لنفسه، أن مشتتُ الذهن لا يقوى على التركيز البصرى، وأن عَوْمَ العين على سطح المرئيات لدليل على أن الدماغ لا يؤدى ما يجب عليه من وظيفة الربط ... ثم دلالة الأسئلة التى تقفز فجأة من لسان أحلام ...

إلى هذا الحد، أحس، بسبب لا يدريه، أنه قد تفرغ للموضوع، وأحس بكراهية شديدة للمحاماة، أو بالأحرى، كره منها التهامها لحياته، وغلب لديه أنه يكره الحياة نفسها، أو يكره منها، بالتحديد، سماحها للمهنة بأن تطغى عليها، وعمومًا، انتهى إلى أنه كره من الحياة أنها لا تمكنه من نفسها .. أو، وهذا تفسير الحلم، هزيمته أمامها .. ..

ولم يكن، رغم مراقبته لنفسه، على دراية تامة بدروب السرحان التى يترنح بينها، حتى لقد رجح أنه يجب أن لا يأمن على حياته، مع زوجته أحلام، وإلا كيف يفسر سؤالها، ذات ليلة، وقد تهيأ للرقاد، عن سكينة المطبخ ، وسكوتها وقد سألها عمّا استدعى سكينة المطبخ إلى فكرها، ثم إجهاشها بالبكاء .. واستقر على أنه يجب أن لا يتجاهل دلالة مثل هذا السؤال، وذهب إلى أن الإنسان قبل أن يسلم نفسه إلى النوم، كالشرطى قبل أن يركن فى زاوية من زوايا دركه ...

كلاهما يقوم بعملية تتميم ... ولقد افتقدت أحلام سكينة المطبخ ، فقفز السؤال أو انبثقت الفلتة من سيال فكريّ صامت يلف مع خيوط العنكبوت فى دماغ أحلام ...

ويقطع عبد السميع شريطه الطويل ويقف عند اللحظة التى غادر فيها زوجته، لقد برزت فى عينيها ، فجأة ، الصفرة التى تغطى وجهها .

- فيه حاجة معينة تاعباكى يا أحلام ؟

وبكت، وجلس إلى جوارها ، يضرب طرف أذنها بسبابته ضربات خفيفة، ولكنها صدته فى صمت.

- إيه يا حُلْمْ ... مش ها تفوقى شوية .. احنا خلاص عجزنا.

وسالت دموع أحلام من جديد ، ولم يستطع أن يواصل المزاح فقد أحس فى قلبه وخزاً ، هو بلا شك من أثر استنشاق كميات هواء أكبر مما تعود استنشاقه فى حالة الوجوم الذى اعتاد حياته..

- أنا باحبك يا عبده .. .. إنت مش حاسس قد إيه أنا باحبك !!

- يا أحلام حب إيه .. والله أنا حاسس .. إنى فى السبعين .

- مش قلت - إنت لا فى قلبك أحلام ولا حب أحلام .

ويتأكد أنه قد تورط فى سؤالها عن صحتها .. وود لو أن فى إمكانه فسحة من المال يدفع بها إلى مصحة نفسية، حيث يعتقد أن

ذلك هو الإجراء الوحيد السليم .. ولاحظ ما أحدثه كلامه عن الحب من يأس سقط على أحلام .. وتأكد أن شريكته فى الحياة لا تفكر كما يجب، وأنها لا تكتفى بما هى فيه من وهن وضعف بل تضنى نفسها بمسائل انتهيا من تقريرها منذ اللحظة التى ارتبطا فيها .. وسألها:

- أحلام ... عارفة حكاية الراجل اللى كان عنده خزاين دهب؟

ولم تجب أحلام، فاستمر يحكى لنفسه : الدهب كان تحت الأرض كل يوم صاحبنا ينزل يطمئن على الدهب ... وفى يوم انسد الباب وراءه .. وانحبس مع الدهب لما مات من الجوع ... واللى يحبس داخل نفسه يا ست أحلام يبقى زى أخينا .. لكن .. هاقول إيه ولاً إيه ... فين من أيام ما كنا نروح الهرم أحكى لك تاريخ الفراعنة ... لو كنتى بتاخدى بالك كان زمانك أستاذة فى الجامعة ... وابتسم ..

- يا عبد السميع .. إيه اللى جاب سيرة الدهب .. والجامعة ؟ إنت كنت بتسألنى عن صحتى؟

ولم يستطع عبد السميع أن يجيب .. وواصلت أحلام :

- ما هو عشان كده مش عايزة أقول لك إن العادة معايا من كام يوم ..

واستحضر بعضًا من التصرفات وسألها عما دعاها إلى اخفاء مرضها عنه، وأحس بالغيظ لدى سماعه، أنها تريد أن تحمل وأن يكون

لها ولد، وعجب من نفسه، كيف لم يستطع أن يصل إلى هذه البؤرة من داخل زوجته؟

- يا أحــلام .. .. ولد إيه وبتــاع إيه .. شــوفى هانفطر إيه .. وإيجار الشقة ... وأجرة الطبيب ...

كـان قـد تأكـد أن زوجتــه تقع تحت وطأة نزيف حـاد يسـتـهلك شبابها.. وأنها تخلط بينه وبين العادة الشهرية ... وأنها فى تهويماتها فى شغل عما حولها .. وأحس بالدوار وأخذ نفسا عميقًا .. متعمداً أن يدفع بكميـات من الهـواء إلى رئتيـه، وطلب عـبد السـمـيع من فـراش المكتب كوبًا من عصير الليمون .. .. وقام إلى شباك الحجرة يستقبل بعضًا من الهواء البارد انتظاراً لحضور أستاذه الأزميلى.

لم يلحظ عـبـد السـمـيع وقـوف العم فـرج الفـراش وراءه بكوب الليمون ولكنه انتبه إلى صوت الشيخ فتح الله أبو خضر «سعادة البيه يا عم الشيخ فرج مشـغـول..» ولم تكن كلمات الشيخ فـتح الله مجرد تعليق غامز.. كانت يد قوية رفعت غطاء أبيض، فإذا تحته جثة .. هذا الرجـل .. الشـيخ فـتـح الله .. لم ينـس بعــد ! .. لقـد نسـيت أنــت يا عبد السميع ..

القرية كلها قالت عبد السميع كافر .. على المصطبة .. وفى دوار العمدة وفى قعدات الليل عبد السـميع لا يصلى.. عبد السميع يكذب

القرآن .. ثم ينكشف المستور ويبدو لسان الشيخ فتح الله بطوله وعرضه وراء الهوجة التى لفت القرية كمرض البلهارسيا .. وفى مواجهة مع الشيخ فتح الله .. يرد مبتسمًا : أصل سمعتك بتقول البنى آدم كان قرد .. قلت شوية شوية .. ها يعطل على لا أشتغل فى الجامع مؤذن ولا الناس تقرينى قرآن .. وتأمل عبد السميع زكيبة اللحم الطرى التى تسمى الشيخ فتح الله .. إنه هو هو لم ينس .. يواصل حملته فى قلب القاهرة .. إنه قطعا تحسس جيبه واطمأن إلى ما به قبل أن يغمز : « سعادة البيه مشغول » فأحس عبد السميع العرق يتجمع فوق صدره وكتفه وينزل خطين فوق الذقن وقفا الظهر ... وأخذ نفسًا عميقًا .. وكاد يغبط الشيخ فتح الله .. متى يبتئس هذا الرجل؟ .. طلب منه أن يعطى فرج الفراش سيجارة .. تربع الرجل وأخرج علبة صدئة وتهيأ للف واحدة .. .. ولكن عبد السميع يطلب منه أن يعطى الفراش سيجارة مكنة .. ولم يُرْتَجْ على الشيخ فتح الله بل ضحك عاليًا وأقسم بالله...

أدار عبد السميع عينيه يتأمل الحجرة .. هذه كانت حجرته حين بدأ يتمرن على المهنة تحت قيادة الأستاذ الأزميلى .. هذا كان مكتبه .. أين الأمل الذى تعهده؟ دراسة القضايا بؤرة تتركز فيها العلاقات الاجتماعية بين المواطنين .. لا قضايا فى هذا المكتب .. هنا مكتبة مطرزة بالصّدف .. أول كتاب وقع فى يده .. تفسير الأحلام

لابن سيرين .. لله وحده هذه الأيام التى عشتها يا عبد السميع تتحيز لبافلوت ضد فرويد .. لقد تحفظت مع فرويد فجالك ابن سيرين .. ثم غادرت هذا كله إلى حيث لقمة العيش .. وتقف فى المحكمة مؤكداً .. أن عقد الإيجار قد حل مشكلة الذين يملكون والذين لا يملكون يا حضرات المستشارين .. وبقى مكتب الأزميلى ظل نخلة فى قبالة الهجير .. .. تنساب إليه قبل أن يجهز عليه المكتب الآخر .. ويعاد الحديث .. ذكريات الأزميلى فى لندن .. انبهار بوقوف الناس هناك طوابير فى محطات الأوتوبيس وأمام شباك المسرح .. صدقنى يا ابنى توفيق الحكيم محظوظ .. ويعترض الابن فى كلام مركّب طويل .. ويحتدم الخلاف .. ثم يفاجآن - معًا - أن العقارب تشير إلى الواحدة .. فيهرول الأستاذ معداً حقيبته .. ويغلق عبد السميع النافذة ويتأبط كل منهما ذراع صاحبه .. ويبتلعهما الليل .. والظلام ..

حضر الأستاذ الأزميلى .. رأى عبد السميع .. انتابته نوبة فرح وغبطة .. حيّاه فى طيبة: ازيك يا أستاذ عبد السميع ؟ ويلقى تحية سريعة إلى الشيخ فتح الله. ويسحب عبد السميع من يده .. وقبل أن يجلسا .. إيه رأيك؟ مش محظوظ؟.. ويعترض عبد السميع وكاد أن ينسى الشيخ فتح الله .. ويدخل فرج الفراش ويميل على أذنه .. ويحضر الشيخ فتح الله : بسم الله ماشاء الله .. اللهم بارك هذا المكان وصاحبه .. والمسألة بسيطة .. بسيطة فعلاً .. تزوج أرملة تفلح أرض

المرحوم .. وبعد طلاقها يريد أن يقاسمها الأرض .. فاعترض الإصلاح الزراعى .. ولا بد أن تكون قضية .. وبالفلوس كل شىء ممكن وينتهى الزبون والمحامى من أمور القضية .. ويخرج الشيخ فتح الله من حافظة نقوده ما يناوله للمحامى .. ويهمّان معًا - فتح الله وعبد السميع - بالانصراف .. فعبد السميع عليه واجب العزومة على بلدياته .. ثم حرصه على العودة إلى البيت .. وللأحاديث ليالٍ أخرى .. أستاذه يصر على عودة عبد السميع بعد توصيل بلدياته .. بعودة عبد السميع يفاجئه الأستاذ بدس جنيه فى يده .. ويرد عبد السميع الجنيه فى حركة سريعة .. الأستاذ يثور .. تتغير ملامحه كما لم تتغير قط .. عبد السميع يذهل ويرتبك .. الأستاذ يترافع ويزيد .. ده يا أخى حقك .. أنا أخذت خمسة جنيه .. لك واحد منها .. إيه يعنى، السمسرة مش عيب .. تفتكر قعدتنا كل ليلة كويسة .. إحنا هاناكل من الأدب؟ أدب إيه وكلام فارغ إيه ؟! خليك راجل واقعى .. إنت كل ليلة تقول واقعية .. واقعية ..

وأنت فى حضرة الأهرامات وأبى الهول .. تتعبّد الحضارة.. وتتشرب التاريخ انهالت حولك مئات الطلقات من مدفع فكرز .. تحاصرك ولا تصيبك .. كان ذلك هو الشاب عبد السميع عبد الشافى المحامى .. جلس مصروعًا لا يعرف كيف يتقى الضربات .. أحس بحاجة شديدة إلى سيجارة .. لقد قاطع السجاير ليواجه متطلبات

الزوجة والبيت .. أحيانًا، كهذه ، يكاد أن يذوب حاجة إلي واحدة .. تمالك ..

- رفضى لا علاقة له بواقعية أو خلافها .. بل إنى لم أقيِّم عملية الرفض ..

كل يصر على موقفه .

- يا أستاذ عبد السميع إذا صمَّمت على الرفض فهذه إهانة قد تقطع كل ما بيننا. وخرج عبد السميع وحيداً إلى الشارع .. هاجمته فكرة الخطأ .. ساح فى رأسه دم أحلام .. يرتفع صوته .. « تتعدل » محلول الشبة علاج الكثير من حالات النزيف .. كان قد قرأ ذلك .

سندس والآخرون

١٩٦٤- جريدة المساء

مع أن كامل لم يهمه، في تلك اللحظة، أي شيء ، فقد أحس بتلفيحة برد تطوق رقبته، فور خروجه من غرفة عباس، بأعلى السطح.

أخرج منديله المتسخ القديم، ودعك به فتحتَىْ منخاريه، وجبهته، وشبك أزرار الجاكتة، وأوقف يأقتها حول رقبته .. وتحت ذقنه . واستدار إلى عباس طالبًا إليه في حدب ظاهر أن يبقى جوه (الدنيا بره .. برد موت).

لم يكن بالسلالم بصيص ضوء، فأغلق عينيه وفتحهما حتى يتبين موقع قدميه، وفي اللحظة الخاطفة، التي أغلق فيها عينيه، لمح في الظلام .. في داخل كل خلايا مخه، صورة سندس، وتعطلت فيه كل مراكز اليقظة والحذر .. ولم يعد يبالي أن يضع قدمه على بسطة سلم، أو ظهر كلب، أو خارج حافة كوبري قصر النيل ..

أدرك كامل، مع دقات قلبه المتخافتة، وضعف سيطرته على ركبتيه الثملتين والطاحونة التي تدور داخل رأسه .. أنه لم يصل إلى حل ..

مجلس الكرادلة العظام، اجتمع بغرفة عباس، احترقت أعداد من السجاير، ارتُشفت أكواب الشاي، مرات ، ولم يصل إلى حل .

درويش، كعادته، أوسعه شتمًا ، وحذره (أى شيء يا واد يا كامل ... إلا حكاية الحب ده .. الحب كأى عملية استنبات، يلزم أنت توافر لها شروط موضوعية .. وعلاقتك بسندس .. تفتقد أكثر هذه الشروط ..)..

مكرم، وفى فمه قطعة سكر (لا يا درويش .. ده جفاف لا مبرر له ... والمهم .. يا جماعة .. تحديد المشكلة .. واحد وواحدة يتبادلان الشعور بالارتياح .. طلبت منه أن يتقدم لأهلها .. ظروفه لا تمكنه .. هذه هى المشكلة) ..

كامل، تجتاحه نوبة ضيق وارتباك .. فهذه هى فعلاً المشكلة .. ولكنها ، قطعًا ، لست هى المشكلة ..

عباس، بسط أن الاجتماع ثم لمناقشة موضوع كامل وسندس، والهدف أن لا يترك كامل يواجه الأزمة بمفرده .. والمشكلة نشأت عندما ظهر آخَر يطلب يد سندس فطلبت من كامل أن يتقدم .. كامل عاجز .. من أين له تكاليف الشبكة وربما المهر ؟ ثم كيف يستطيع أن يفتح بيتًا ، وهو لم يدفع إيجار ثلاثة شهور للخندق الذى يسكنه؟

مكرم، وقد هشم قالب السكر، وتشربه فمه، ويساقط فى حلقه، يرى أن سندس تفتعل حكاية الخطيب الآخر .. ولب المشكلة أن علاقتها

بكامل طالت ، وعذرها كفتاة من الطبقة الوسطى ورثت أن ترى كل شىء محدداً بوضوح تفتقده فى علاقتها بكامل، فوضعته فى لحظة اختيار صعبة ..

درويش، وقد لسعت السيجارة طرفى سبابته والوسطى، وأحس النار فى مقدمة شفتيه (الخطأ . خطأ أخونا كامل .. لأنه ربط تركيبه الذهنى وبناءه النفسى بالبنت دى فعلق حركته على إرادتها.. وده خطر.. ويا جماعة حرية الإنسان يجب أن تكون حرة من الارتباطات الفردية .. وعمومًا العلاج، حتمية إنهاء هذه العلاقة وبترها، كالزائدة الملتهبة من الأمعاء ..).

كامل، يذكر لدرويش رأيًا آخر، يبديه وهما يقطعان معًا شوارع شبرا والدراسة ومصر القديمة (البنت يا واد يا كامل .. طيبة .. ومش معقدة .. صحيح أبوها خنزير .. لكن إحنا نفسنا .. يا ابو كمال .. فينا تخلف ..) ولكن درويش وقد اتخذ مجلس قاضى القضاة .. فالعلاج جراحى ..

عباس، أفتى أن اللعب جائز، وحق لكامل أن يرفع سماعة التليفون ويشعل الخط .. .. وجزاء سيئة سيئة مثلها ..

كامل، نفسه لا يدرى ما الذى ذهب به بعيداً عن المجلس الموقر .. إلى مشرحة زينهم وتقتحم رأسه المشاهد .. جثة عثمان بلدياته الذى مات فى قصر العينى وأصروا على تشريح جثته .. ومثلت فى ذهنه

الجثث المرصوصة على رفوف حجرة التشريح، متهدلة فى همود واستسلام .. ويشعر البلل فى قاع قدميه .. ويحس زمتة فى جسده كله ..

وفى رأسه قمع يدور، صاعداً من قاع مخه إلى سقف دماغه .. المداولات تسافر إليه من مكان بعيد .. وتلف مع كل ما حوله .. حتى لم يعد شىء .. ويطفو وعى كامل إلى السطح، ويعود البصر إلى عينيه .. تنتهيان إلى صورة معلقة فى حجرة عباس .. لحية كثة طويلة .. عينان تستشرفان الألم .. أعَيْنَا أبيه؟ أعَيْنَا جده؟ مات الرجلان وما تقابلت العيون .. وتجذبه الدوامة ثانية إلى القاع .. ويعاود الوعى تسلله ببطء إلى كامل .. ذراعاه تثنيان وتفردان .. جسده ممدد .. ويفتح عينيه .. تقعان .. هذه المرة .. على وجه درويش .. الدموع تملأ عينيه، مكرم، طالب الطب .. راكع على ركبتيه إلى جواره .. كامل يصر على العودة إلى حجرته بمنيل الروضة، يتغلب على كل معارضة .. أمنيته أن يلحق بآخر أتوبيس إلى ميدان التحرير .. الخطوتان الباقيتان إلى حيث يضع جنبه .. فركة كعب .. خليك انت يا عباس .. الدنيا بره، برد موت ..

الحوارى إلى محطة الأتوبيس ضيقة، مظلمة، ليقطعها وحيداً، الهواء البارد يملأ رئتيه .. الظلمة اعتادتها عيناه .. متى تنتهى وحدتك يا كامل؟ الليلة الماضية فى هذا الوقت .. كنت هناك فى القرية ..

عزبة السنط .. الدار المظلمة .. الأم وابنتاها نائمات فوق قبة الفرن .. في القاعة الجوانية، جحر الأرانب فى البحراية ينفث رائحة نفاذة .. مزيج من الرطوبة وعطن أعواد برسيم تعفنت مع زبل الأرانب .. قفص الفراخ .. قفص العيش وأعواد السريس الذابلة .. الفئران تقرض أرغفة جافة .. سفينة نوح المسقوفة .. يملؤها الدخان من القاع حتى السقف..

- يا ولية افتحى النيلة .. الباب .. هنتخنق .

- الدفا عفا يا واد كامل .. مصر عملت فيك إيه .. يا ريت يا كامل يا ابنى تخلص التعليم .. فى عين العدو سنتين .. سنتين يا كامل يا ابنى فى عين العدو .. وتقول البعيد ساقط .. آخر قيراطين فى الفدان اللى ورثته عن المرحوم أبويا .. بعناهم .. إخواتك .. يا كامل .. إخواتك يا كامل عايزين تبقى راجل .. علشان الناس تناسبك .. فى نفسى اطمئن على إخواتك قبل ما أموت .. كل الولاد اللى راحوا مصر معاك خلصوا واتوظفوا .. وانت بسلامتك .. متحفض ومنصان فى عين العدو عريس قد الدنيا .. ياما فى نفسى أجوزك البنت بنت الحاج حامد شيخ العزبة .. يسعى لك فى وظيفة .. واخواتك تترفع راسهم .. وبسلامتها .. هتورث .. فدانين. والنبى المرحوم أبوك .. الله يرحم الحى والميت .. لما اجوزنى كان حاطط عينه على الفدان اللى ورثته ..

وابنة الحاج حامد تدفع إليك يا كامل بسندس .. وكامل لا يريد أن يصدق الشيطان الهامس إليه، إن سندس، كادت أن تتجاهله ظهر اليوم

ببوفيه الكلية ولولا أنه شدها من عينيها بعينيه .. لمرقت وما أقبلت .. ولقد بذلت يا كامل مجهوداً .. كالذى يبذله الصياد .. يجذب خيوط شبكته .. انضمت على شيء ثقيل .

وعندما خرجا - معًا - إلى شارع الجامعة .. لم يكن بينهما ما يتحدثان فيه، سافر إلى البلدة .. ويعلم - مقدمًا - أن القرية هى الدائنة .. القرية جادت بكل ما عندها .. الأم على حق فى الموشح الجديد الذى صبته .. وما كان السفر إلى « عزبة السنط » إلا قمحة الأفيون يدسها المفلس تحت سقف حلقه وهو ينظر إلى كرش زوجته .. على أن الفراغ الذى كانا يتحركان فيه ليس مطلقًا .. ففى ذاكرة سندس، قد بَعُدَ العهد على ذلك اليوم الذى كان فيه أستاذ علم الاجتماع يردد إحدى لوازمه اللطيفة .. أنا يا أولاد لا أومن إطلاقًا بما يسمونه تطوراً حتميًا للتاريخ .. ووقف كامل يرد فى كلام معقد طويل ويبتذل مجهوداً عصبيًا يخفى به حماسًا جليًا .. وخوفًا غير واضح. وعلمًا لم يستمده من مدرجات كلية الآداب .. وتطورت الدهشة داخل سندس إلى إعجاب .. تغذى دائمًا من حماس كامل وجدته التى تخالف كل ما لديها من مؤكدات . وجدة كامل ما تزال بحالها على سندس إلا أن سندس فى ما يشبه الحيرة .. هل تعتمد على الله وتقرر أن شيئًا فى كامل قد تغير .. أم أن شيئًا فيه يجب أن يتغير .. أم أنها لم تعط كامل سمعها كله ...؟

أم أن كل رابطتها به كانت تعبيراً عن بغضها لطربوش أستاذ علم الاجتماع ؟ ويرز كامل - من أين؟ لا تدرى - ليقوم وكأنه نائب عنها بالرد على أستاذ علم الاجتماع ويشغل حيزاً محدوداً فى داخل نفسها وفكرها وهما أكثر تعقداً واتساعًا من عمارة أبيها، فى العباسية .. أم أنها قد مرت على كامل، فلم يعد نداً لها .. أو على نحو أدق .. أن كامل فقد حماسه وجدته .. ورأت فى الطربوش أكثر ثباتًا من سور مصر القديمة الذى استخدمه محمد على ليواصل به ماء النيل إلى حريمه فى القلعة .. أم أن كامل .. فوق ذلك كله .. لم يلتفت إلى النمو الحيوى فى جسدها الريان .. وتخشى أن يظل على حماسه وعصبيته باحثًا فى تلافيف مخه عن جسدها هى ...؟

... على أن سندس .. ولم يبرح ضميرها يوم الدينونة ومحكمة أوزوريس، قد استقرت .. على أن تقبلها لكامل لم يتغير .. رغم تجاهله لبروز نهديها وكل ما لحق بجسدها من إضافات .. إلا أنها ليست مستعدة أبداً، أن تقوم بدور مضحية مسيحية .. فى سبيل كامل أو غيره من العاشقين أو العابثين أو المتغزلين أو حتى من طالبى الزواج على سنة الله ورسوله، أى بمهر منه مقدم ومؤخر وله ذيول ليس آخرها قمقما طوله السماوات والأرض ..

... وسندس لم تكن بمستطيعة - فيما بينها وبين نفسها - أن تحدد خريطة كامل بنفس الوضوح الذى ترى به نفسها .. كان واضحًا

لها تمامًا أنه جادٌ فى طلب يدها .. وكان واضحًا كذلك، وليغفر لها - قرص الشمس بين جناحى النسر ورأس الحية - أنه لم يفهمها ، كسندس ابنة الحاج رشوان توت آدم صاحبة أغنى جسم فى قسم الاجتماع إن لم يكن فى كلية الآداب، إنه لا يعرف كيف يعاملها أو أنه يعاملها عن طريق الترجمة .. إلا أن ما حيرها حقًا .. أن هذه الرؤية لكامل قد اهتزت .. تقدم لها ابن عمها الملازم فتوح آدم ورفضته .. وها هو المهندس طارق شتا يطلب يدها ، وهى لا تستطيع أن تؤكد فى داخلها مدى قدرة كامل على السير معها فى الطريق .. ولا تقوى على أن تهمس لنفسها أنه قد انصرف عنها .. ولو استطاعت اليقين لما أطبق عليها الصمت .. ولأجابت كامل ...

- يعنى ما سألتيش عن اللى عملته فى البلد ؟

.. وكامل يعرف أنها لو سألته، لما أجاب .. لأنه لم (يعمل) شيئًا .. لقد سافر وقضى ليلة وعاد ..

- المفروض إنت اللى تقول .. عملت إيه .. أنا مش هاتدخَّل .. وأنت تعرف الطريق إلى بيتنا ...

.. ..

.. كان كامل قد وصل محطة الأتوبيس .. كلمات ممطوطة كالحبال تلتف حول سمعه .. (ويقصروك يا ليل) .. قطان أسودان يتسلقان سور حديقة منزل .. سيارات أجرة تتلكأ قرب كامل ثم تنطلق يائسة ..

سيارات خاصة تتتابع كالأرانب المذعورة .. كامل لا يشعر بأية رغبة فى العودة إلى حجرة عباس .. حنين طاغٍ يجذبه إلى غرفته .. يغلق وراءه بابها . يلتف فى بطانية ويخلو إلى نفسه .. ماسورة المجارى الممتدة داخل الحجرة كالشريان المتصلب لا تخفف من حنينه إلى غرفته .. هناك تلقيمة شاى وبعض السكر .. وفى الوابور بعض الكحولّ .. يرتدى المعطف القديم ويرتشف كوب الشاى ويسحب البطانية ويتفرغ لما يدور فى رأسه .. لكن طارئًا يلح عليه أن تزعجه أصوات الراديو المنطلقة من حجرات جاراته فى البدروم .. الست عطا وطاطا وفاطمة .. على أن أملاً انفرج، من خوفه أن يكون باب الرزق قد فتح أمامهن ويقضين الليل خارج البدروم .. وقطع عليه مواصلة المقارنة بين طاطا ابنة الليل وسندس ابنة الحاج رشوان .. صوت آت من بعيد .. ويركز ناظريه .. ويتحرك وسط الطريق .. لن يمر الأتوبيس ويخلفه وراءه .. ويتحسس بطاقته الشخصية يطمئن إلى أنهم سيتعرفون على جثته .. ويقف الأتوبيس .. كامل لا يصدق .. يسخو فى إزجاء شكره للسائق ..

.. ..

شارع النيل تكنسه هبّات ريح تنفذ دبابيس إلى الجسم المرهَق المكدود . طبقات الضباب تغطى الشارع بما فيه .. وتلف مصابيح الكهرباء .. وقع أقدام كامل يسرى إلى مسافات بعيدة .. حلم وَسْنان .. دماغه - كالشارع - فارغ تمامًا إلا من صورة المعطف الثقيل

والبطانيـة ولا شىء .. وقبل أن يكسر خطاه إلى شارع العظم بأول المنيل .. تمرق إلى جواره سيارة سوداء كبيرة، وتسبقه إلى الشارع الذى يقع فيه سكنه .. وقبل العمارة بقليل تبطئ السيارة وتلقى شيئًا وتنطلق .. ويتبين الشىء فإذا هو طاطا .. وينزلان - معا - إلى البدروم ..

- قول لى يا أستاذ كامل .. إنت من اياهم ..

ويرد مرتبكا ..

- من مين ؟

- أنصار الست !!

- الله يسامحك يا ست أم السعد .

- أم السعد مين .. أنا اسمى طاطا .. أنا اللى غلطانة اللى قلت لك على الاسم المهبِّب ده .

- بشرفى أم السعد أجمل .

.. دلفت طاطا إلى حجرتها .. وما إن اندست إلى جانب شريكتها فى الحجرة تحت اللحاف .. حتى سمعتا .. داخل البدروم .. خبطًا شديداً ..

- يا عينى .. الأستاذ كامل ماعرفش إن الحاج هباب صاحب النيلة .. جاب المُحضر وحجز على الحاجات بتاعته .

- والمصيبة إنه يبات فى الشارع ومايرضاش ينام معانا .. !!

قصة لا تنتهى

١٩٦٥ - جريدة المساء

.. شاقنى دائمًا أن أكتب قصته .. لأمر ما، اعتقدت أننا ركبنا ذات مساء من محطة واحدة، تحمَّل ظهرانا نقوشًا حفرتها عصا خولى الوسية، فهربنا، ووزعَنا قطارنا الأهوج حسب هواه، وإلا فما السر الذى جذبنى إليه؟ فظهيرة كل يوم جمعة أسعى إلى حى السيدة زينب، وأذوب فى شارع السد، بمعالمه الثابتة كالهرم، والجدران الحجرية التى تقابلنا كلما حفرنا فى التراب - الكفرى - فى أرض قريتنا، طوابير الذاكرين أمام المسجد يمسك « الطابق » منشد خلى البال، ينغم الكلمات مع حركة جذوع الرجال « عجبى على عبد كان ماشى ورا سيده ... » حكاية سيدى إبراهيم الدسوقى الذى قيد الجان .. يحكيها أعرابى .. شعره مرسل كجنِّيات الحواديت .. تلمع فى فمه سُنة ذهبية .. يطوح يديه داخل أكمام جبة واسعة ..

مواويل حمراء يطلقها صعيدى تتربع على رأسه اللبدة، كتاج مينا قبل اتحاد الوجهين .. وعندما يصل إلى قصة أختنا التى غلبها الهوى، وما فعله أخوها ليغسل العار «بلده بنى مزار تبقى جوار .. للمنيا »

تغلب أولاد العم، نوبة حزن من عمق آلاف السنين .. ويجرعون ما فى الأكواب من شاى أسود .. مرة واحدة كالعقوبة .

.. وحول المقام وعلى مدى الشارع حلقات لا تنتهى . الشاطر يكسب، والصورة ورقة من ثلاث ورقات .. أهه .. أهه .. أهه المكسب للمفتحين خد بالك .. ونوم العازب .. وعجين الفلاحة .. سلام لسيدك يا ميمون .. ويطيع القرد المدرب. وفى نهاية الشارع، فى ميدان زين العابدين .. كانت حلقة مكتملة .. بناء تم إقامته .. وتقدمت أطلت من فوق الرءوس، وسقطت عيناى داخل البرجاس ..

.. هذا وافد جديد .. يدور - داخل الحلقة - كعقرب الثوانى .. ينتعل حذاء كاوتشوك .. أدخل نصفه الأسفل فى سروال محبوك .. يخرج من جيب سرواله منديلاً يمسح به على جبهته، وعلى شعره، وتحس أنها لازمة من لوازمه، أكثر منها حاجة حقيقية إلى تجفيف العرق .. نصفه الأعلى، عريان بارز القسمات، نهداه، آية على أن الفروق بين الفارس والحسناء، رغم كل شيء .. ليست بذات بال « العرض مستمر، بذمتى كأنكو، فى سيما .. أنا مش شحات .. فلوسكو أديكو بها عرق .. شغل ».

فى ركن من داخل الحلقة، عجوزان يضربان خبطات أقرب إلى الموسيقى التى تتقدم مسيرة الجنود .. فى وسط الحلقة طرابيزة مستطيلة

نحى عنها رصة سكاكين .. يدور حول الطرابيزة فى قفز رشيق .. خفيف .. بين قدميه وسطح الأرض جفوة وعتاب .. الكلمات تصاحب قفزاته .. نظراته طلسم يربط السور الذى حوله، له قدرة تغنيه ولا تعوزه إلى اختيار كلماته المنتقاة مع وقع أقدامه الموسيقىّ، فلا يدع الجمهور ينفضّ من حوله .. المجال يلزم دوامه بينه وبين كل من حوله .. يصرح أنه سيقدم الجزء الثانى من العرض ..

.. سيرينا رجلاً بلا بطن .. نحن السور .. فينا الحامل التى تخشى أن ينفجر بطنها ويقفز منها طابور أولاد .. أحذيتهم باهتة .. شراباتهم فردة مربوطة بأستك متآكل، والثانية متكومة عند رقبة الحذاء المثقوب، يحملون حقائب قماشية ويشغلون فصلاً عن آخره من فصول مدرسة بنباقادن .. نحن السور .. فينا براميل الشحم واللحم والزيت .. وفينا .. عباد الله - أمثالى - الذين تناولوا سندوتش الفول قبل أن يكتمل بهم السور .. هو جمع أحد عشر قرشًا، لم يَفِ بوعده ويُعِدْ ما زاد عن العشرة القروش ..

.. رأيناه على الطرابيزة، أشار بيده، فسكتت موسيقى الحرب.

« دى إيه؟ بطن زى بطونكم .. لكن بمعونة الله .. حالاً مش ح تلاقوها .. مش شغل جلا جلا .. ده فن».

.. فى لحظة خاطفة .. كان قد شب على أطراف أصابعه داخل

الخف .. شفتاه مزموتان فى قسوة .. منخاراه منتفخان كمنخارَىْ حصان سباق فى نهاية الشوط .. وهناك .. هناك أسفل صدره .. كانت فجوة مفزعة ..

طرقعت أكف السور .. عادت الموسيقى إلى رتمها. قال كهل: « باسم الله ما شاء الله ».

عادت القدمان الرشيقتان تغامزان سطح الأرض .. عيناه تدوران علينا .. تجمع الإعجاب وتبقى على الرابطة .. أخرج منديله يمسح به جبهته وشعر رأسه .. ليست اللازمة بعيدة تمامًا عن حياة صاحبها..

أعلن مرة ثانية، أن العرض لا زال مستمراً .. أسارير وجهه ضاحكة .. بسمة مستخفية تتلاعب على شفتيه .. إنه يحيا لحظة انتصار .. سألنا .. سأل السور « يعنى فى السيما .. بتشوفوا حاجات زى دى؟ » .. ثم طلب رجلين .. جدعين شاربين من لبن أمهما .. لا يهمهما الموت .. سورنا يهاب الموت .. أحس أن كلمة الموت غطت على رشوة الشجاعة التى قدمها .. أعاد الطلب بصفات أخرى .. مستنكراً أن لا يكون بين الحاضرين جدعان .. استنفر الشهامة والفتوة، وهتف بحياة الرجال .. وألقى بورقته الأخيرة .. هو لا يطلب حرمتين .. وبإشارة من يده دقت المزيكة تحية للرجال .. وللرجال وحدهم .. دافع السور عن نفسه .. دفع بطوبة من وسطه .. فتى داخل جلباب مقلم بخطوط زرقاء عريضة .. وقف كالمبهوت وسط الحلقة .. لم يحتمل

عيون السور تتركز عليه .. أخرج من جيب الساعة سيجارة وحيدة كانت تعمره .. تحسس جيبه الكبير .. يشير، إلى العيون التى تقلبه، إلى أنه يحتفظ فى جيبه الكبير بعلبة الكبريت .. « عايزين جدع تانى » كان قد استنفد أوراقه .. تأكد أن السور قد استنام .. الفرجة سهلة .. المشاركة على البعد ميسورة .. يلزم رجل ثان .. فى جهة من السور أشار بيده « أنت » ارتبك السور .. لم نعرف على وجه التحديد .. من المقصود بالنداء .. بعضنا نزل بنظره إلى أسفل .. بعضنا غير زاوية المشاهدة .. حتى لا تلتقى العيون .. عيون أخرى تتأمل الحامل الحديدى واقفًا فى ركن من داخل الحلقة .. فى أعلاه دائرتان حديديتان بهما كرات خيش مسودّة إثر حريق .. رد فلاح متسائلاً .. « أنا ؟ » ولقطه الشيطان .. « أيوه .. أيوه انت يا أخى » وفى باطنه ضحكة خفيفة لم يسمح لها بالانعتاق .. وقف الفلاح بطاقيته وبر الجمل وجلبابه الصوف، إلى جوار فتى السيجارة .. ألقى بنصفها أمام العيون جميعًا .. داسه بالصندل .. على كتفيهما معًا تمددت عصا طويلة .. من جراب أخرج حبلاً .. لفه حول العصا ومن تحت الآباط .. الرجلان أصبحا حزمة واحدة .. طلب خمسة قروش .. ليس عشرة .. أقسم أنه سيعيد إلينا ما يزيد عن الخمسة القروش .. هذه لعبة ستميتنا من الضحك. من لا يضحك حتى يقع على ظهره يسترد ما دفعه مضاعفًا نحن لا ندرى ما سيحل بهذين المربوطين .. أمهما قد دعت عليهما فى

يوم جمعة .. فى ساعة منحوسة .. سيحلفان بهذا اليوم .. كان يقفز داخل الحلقة .. المذيع الفصيح الذكى يتربع على لسانه .. عيناه تخترقان السور .. يده بالمنديل مفتوحًا ممدوة للسور كله .. خمسة قروش .. جمعنا ثلاثة .. الباقى قرشان .. فتانا صاحب الجلباب المقلم هز كتفيه .. جس الرباط .. نفش صدره .. ضم كتفيه .. انفلت بنفسه شاقًّا طريقه خارج السور .. مصممًا لا يلتفت .. الباقى قرشان .. حانت منه التفاتة .. الفلاح يقف وحده .. « مش عايزين تجيبوا القرشين؟ » هو الآخر لا يطلب هذين القرشين .. فك العصا .. توجه بكلماته إلى السور .. العرض انتهى .. أقسم أننا لا نستحق الضحك .. تساءل مع نفسه مستنكراً أن يكون الضحك مجانًا ..

* * *

.. كانت الشمس قد وقفت عمودية على القاهرة، فتسيح الإسفلت .. وتشوى الوجوه .. وتحبس الناس فى البيوت .. حى السيدة زينب وشارع السد كالعهد بهما دائمًا فى ثبات الهرم والجدران الحجرية التى تقابلنا كلما حفرنا التراب الكفرى .. ولكنه - هو - لم أره مرة ثانية.. ولا أدرى يقينًا كم مرة تعامدت الشمس فوق القاهرة قبل أن ألمحه .. وأين .. فى شارع ٢٦ يوليو .. الشارع الذى يبدأ ولا ينتهى .. وفى

أول عطفة بعد تقاطع شارع ٢٦ يوليو مع شارع الجمهورية .. كان هناك .. وأحسست تنميلاً فى بطن قدمى .. دق قلبى .. فكرت لحظة أن أسرع إليه وأسرَّ فى أذنه أنه يقف فى شارع يختلف تمامًا عن شارع السد .. الناس هنا غيرهم هناك .. إلا أنى تذكرت مبدأ أعامل به ابنتى صفاء كلما قابلتْ مأزقًا حرجًا .. أدعها تواجه الموقف .. وكما أرقب صفاء تمر بتجربة جديدة .. وقفت على البعد .. قلقًا .. خائفًا .. متوجسًا .. متردداً بين إسداء النصيحة وأن أتركه وأنصرف .. كانت العطفة خالية إلا من بعض المارة ، ومن المتفرجين على ما تعرضه محلات شيكوريل .. المؤسسة المصرية الاستهلاكية العامة .. تلفح الأجسام نسمة حانية تتقبلها غير مصدقة أن جحيم الصيف قد انتهى .. هو لم يتغير .. خفيف .. ممشوق .. رشيق .. عضلات ذراعيه بها آثار جراح وندوب عميقة .. قسمات وجهه مرنة .. بسمة واسعة تغطى وجهه كله .. لا تستطيع أن تتأكد ما إذا كانت بسمة حقيقية، أم لازمة من لوازم الشغل .. عدة العمل منصوبة .. الطرابيزة .. الحامل الحديدى يعلوه إطاران منفصلان .. كهلان يدقان موسيقى رتيبة تستوقفك بنشازها .. يدور بدراجته فى دائرة واسعة .. يصنع مسرحًا .. يمسك جادون الدراجة بيديه معًا .. يرفع يداً ويمسك الجادون بالثانية .. يرفع يديه الاثنتين .. يزيد سرعة الدراجة .. الدراجة تدور بأقصى سرعتها ، فجأة قفز الراكب ووقف منتصبًا ورفعها إلى أعلى ..

أنزلها بيد واحدة.. السور يتشكل .. عندما نحّى الدراجة جانبًا .. أقعى وانتصب واقفًا على كفيه .. جسده مشدود .. ساقاه منتصبتان .. حدقة العين لا تسجل لحظات ثباته .. توسط أرض المسرح .. مسحت عيناه جمهور الحفل .. حسن إذن .. يحسن العمل .. الحامل الحديدى، توسط المسرح .. بعود ثقاب أشعل كرات الخيش الموزعة دائريًا على واحد من الإطارين .. دار بعينيه - مرة ثانية - متفحصًا المتفرجين .. صمت أحسه هو سقط على الناس .. دق الحديد الأحمر .. سألنا .. نحن حضرات السادة عما نراه .. أكَّد لنا أن ما نراه حقيقة وليس وهمًا .. النار التى نراها حقيقة .. السكاكين التى نراها مرشوقة داخل الإطار الحديدى .. سينفذ منها - العبد لله - ليس فقط من داخل أسنَّة السكاكين .. أيضًا من بين كرات الخيش المشتعلة .. كانت السكاكين نافذة من الإطار الحديدى .. صانعة بأطرافها إطاراً أضيق .. نسمات الهواء تلعب بلهب الخيش المشتعل وتصنع - هى الأخرى - سداً من لهب .. زاحمت أنا السور .. اقتربت أكثر .. مسحت زجاج النظارة .. ركزت عينى على ذراعيه .. جروح مختلفة الأعمار .. أحسست رغبة فى الابتعاد .. سار بخاطرى أن أتقدم وأمنعه .. تحسست جيوبى .. ماذا لو أفرغت ما بها فى يه .. ما بها لا يقل عن الثلاثين قرشًا التى يطلبها عادة .. أصحبه إلى قهوة الفيشاوى .. نشرب الشاى .. نستعيد ذكرياتنا المشتركة .. الوسيَّة التى هربنا منها

ذات مساء .. نقش عصا الخولي .. ترى ماذا حققنا .. شدني - هو - من أحاديث قهوة الفيشاوي .. وقف قريبًا مني .. يده ممدودة .. على كفه منديل أبيض .. سحبتْ يدي ورقة دسستها في كفه .. توقف ليعيد إليَّ الباقي بعد استنزال القرش .. إيماءة خافتة من يدي .. جدية غطت ملامح وجهي .. التقط الإشارة.. أنا لا أريد الباقي .. ولا أريد الإعلان .. أشرق وجهه بابتسامة واسعة .. رفع يده الثانية بالتحية .. وقف يعد الفلوس التي جمعها .. هو يطلب ثلاثين قرشًا .. دي لعبة موت .. أكل عيش .. هو ليس حراميًا .. القرش يخش جيبه بالعرق .. يمكن بحاجة أكبر من العرق .. الأعمار بيد الله .. ثلاثون قرشًا .. سيعدّها أمامنا .. سيعيد إلينا ما يزيد .. ويطالبنا بالتكملة .

كان يعدُّ القروش .. في غير جلبة تحرك السور .. أفسح مكانًا لسيارة سوداء مهيبة في طول تروللي باس .. بداخلها راكب واحد غير الذي يجلس أمام عجلة القيادة .. نزل السائق .. لف حول السيارة بلهفة .. فتح الباب الخلفي وظل ممسكًا به .. مضت فترة .. برز بعدها واحد من عباد الله - أيضًا - يلبس أبيض في أبيض .. أحسست بالخنق .. مرق كالطيف الساري إلى محل روائح عطرية .. أغلق السائق باب السيارة .. وقف على باب المحل ..

- دول معدودين بالقرش .. بالذمة انتم طيبين وولاد حلال؟ اعتمدنا على الله .

.. رغم معرفتي السابقة باللعبة .. تحققها أمامى شىء آخر .. إننا جميعًا نعرف الموت .. إلا أن فقدان من تحب شىء آخر .. إنه ما زال مصراً على أن يقفز بين السكاكين المشرعة لشرخ كل جسده لو انحرف أقل من نصف عقله إصبع، ثم من بين سد اللهب .. وبعدها مباشرة طرابيزة صغيرة عليها قاعدة مثبت فيها عدد أصابع اليدين سكاكين كالسيوف .. عليه أن يجتازها ..

.. أشار بيده فسكت الخبط .. تركزت العيون عليه .. توزعت أنا بين السيارة التى وقفت كالعظمة فى الزور، وبين السكاكين واللهب مما يتطلب توازنا نفسيًا وعصبيًا وجسديًا لا يسمح بأن تركب شعره على جارتها .. شدنى .. مرة أخرى .. من التهويمات التى تتجاذبنى ، وهو يشد كيانه كله أمام الحاملة ضم كفيه مفردتين داخل إطار السكاكين، حرك يديه داخل الإطار .. أدارهما وكأنه يقيس بذهنه .. كأنه يضبط جسده للمرور من سَمِّ الخياط .. ابتعد .. تأمل الحامل .. ألقى نظرة رجاء على الحامل .. ونظرة عتاب .. لا أدرى .. على من .. ابتعد عن الحامل بظهره .. أقبل عليه مسرعًا .. أغمضت أنا عينى .. فتحتهما .. كان - هو - هناك فى الجانب الآخر منتصبًا . صفقت الأيدى .. قبل أن ينتهى التصفيق .. كان - هو - يعلن أن العرض مستمر .. لم أكن احتمل أكثر .. شققت طريقى صامتًا .. كئيبًا .. بعيداً عن المسرح .. ملقيًا نظرة كراهية على السيارة الفارغة الفارهة ..

شققت طريقى فى الحارات الضيقة .. بعيداً عن الناس والسيارات .. ألوك شيئًا لا أدريه، لكنه كالحمى يهز جسدى كله .. مضطراً كسرت غلالة الحزن .. حشرت قدمى على سلم الأتوبيس إلى سكنى بالجيزة .. طوال ضجعة العصر، كانت السكاكين تتطاير فى رأسى.. الدم يسيل ويصبغ كل شىء .. أفتح عينى مفزوعًا .. أتقلب .. وفى أول الليل قررت أن أكتب قصته .. تخيلته - مثلى - شيّعته القرية ذات مساء ولم يعد إليها .. كان صبيًا يجنى القطن فى واحدة من ضِياع أمير .. يعود آخر اليوم مرهقًا منهكًا يلقى بجسده النحيل على قبة الفرن .. يحلم بصيد سمكة كبيرة .. فى الصباح الباكر توقظه أخته الكبيرة .. فقد ماتت أمه بعد ولادته .. أبوه طفش من العزبة .. لا يدرى مكمنه أحد .. وذات مساء .. تسلل من العزبة .. انتسب مواطنًا فى دولة السيد البدوى .. ساح طنيبًا فى حمى الأسياد .. إبراهيم الدسوقى .. مرسى أبو العباس .. الغريب حامى السويس .. عبد الرحيم القنائى قنديل الصعيد .. واقتحم - أخيراً - حيث تقابلنا أول مرة .. حى السيدة زينب .. ست الديوان الباتعة.

أمسكت بالقلم .. بعد تردد طويل كتبت « قصة قصيرة » ولم أزد .. وواجهت نفسى موبِّخًا أية قصة .. ولم هذه ؟ وهل تمنع قصتك السيارة الفارهة وهى تقتحم حياته لا يهمها أن تشققه السكاكين وتشويه النار؟

وتركت الورق والقلم .. وقمت أمضغ يأسى ..

لكنه - هو - لم يجْلُ عن بالي أبداً .. استقر رأيي على أن أدعوه إلى كوب شاى على واحد من مقاهي الجيزة، وأسمع حكايته .. من حقه .. رغم كل شيء .. أن تسجل قصته بأمانة من شفتيه لسطور الورق .. إلا أنى تبينت أن رغبتي فى أن أجلس إليه، أحب إليَّ من تسويد عدد من الصفحات وقبض خمسة جنيهات من جريدة المساء.

.. والتقيت به .. وسط مسرحه الذى أقامه هذه المرة فى شارع الموسكي على رأس حارة اليهود .. صممت على الفور أن أصحبه فور انتهاء العروض التى يقدمها .. لم أشعر برغبة فى مشاهدة العرض القاسي الذي يقدمه .. استلمني شارع الموسكي بزحامه الخانق .. عدت إليه بعد أن انتهى من العرض الخطر .. على تصميمي أن نحتسي أكواب الشاي وندخن سيجارتين .. ونستعيد ذكرياتنا المشتركة .. سنضحك .. سنغدو أصدقاء .. سنزور القرية التى هجَّ منها .. لا بد أنها تغيرت .. رحل عنها الأمير ورجاله .. من يدرى؟ لعل أخته تنتفع بفدانين من الإصلاح الزراعي .. من يدرى؟ لعل أباه قد عاد إلى العزبة بعد أن جلا الألباني عنها .. لا يجب أن أتعجل الأحداث .. دعها تأتِ على مهل .. ضمَّني السور المتزاحم حوله .. توقعت أن يطلب رجلين .. جدعين .. شاربين من لبن أمهما . لن يكرر هذه المرة أنهما لايهابان

الموت .. لم يفعل .. قفز رشيقًا فوق الطربيزة وقد نحًى عنها سكاكين الموت .. خاطبنا .. هو رجل يعيش من عرقه .. هو قد أعد لنا مفاجأة .. أشار إلى واحد حمل إليه سلالاً كبيرة.

- بالذمة يا حضرات لازم تكسبوا .. الورقة الملفوفة دى فيها حاجة تمنها مش أقل من شلن .. تمنها قرش .. قرش واحد .. اللى م تعجبوش يرجعها ..

.. امتدت الأيدى بالقروش .. قرط .. مشبك .. مشط .. مسبحة .. سلسلة مفاتيح .

.. اعترتنى دهشة .. أصابتنى خيبة .. أفقت عليه وهو يعلن أنه قد فتح ورشة صغيرة فى أول شارع كلوت بك .. كدت أنصرف .. كان قد انتهى من توزيع بضاعته .. سرت خطوة بعيداً عنه .. غلبنى حزن خفيف .. لم أصدق أن ما بيننا قد انتهى هكذا .. عدت إليه .. مددت يدى .. خفت أن يحسبنى أحد رجال الشرطة جاء يستأديه جعلاً .. وربما يشبه الذنب، أعوزتنى الكلمات المشتركة التى أحدثه بها .. ابتسمت بلا مناسبة .. كان المتفرجون والمشترون قد انصرفوا .. بقيت فى مواجهته .. اثنان من الديكة .. يتبالان النظرات .. كسرت التحفز الذى نبت بيننا نبتًا شيطانيًا .

- تعرف ؟ كنت هاكتب حكايتك ..

ملامح وجهه محايدة .. ملامح وجه يستفسر على وشك أن يغلبه الضيق وتتشكل ملامحه معلنة غضبًا ..

- حكاية إيه ؟

.. كان الموقف قد أفلت من سيطرتى .. فقدت نفسى .. خطيب مسجد يتلو خطبة الجمعة من كتاب قديم .

- حكاية الصبى اللى هرب من الوسية ذات مساء .. عاش ولف الموالد .. وتنتهى القصة وأنت تقدم العرض فى شارع ٢٦ يوليو .. لم يحتمل أن يسمع كلامًا لا يفهمه .. اغتصب ابتسامة ..

لا مؤاخذة يا سيد .. يعنى إيه الوسية ؟!

لا مؤاخذة المسألة فيها غلط .. أنا .. لا مؤاخذة .. من حى الخليفة وعمرى ما طلعت منه ..

.. العرق يتفصد من جسدى كله .. لا أدرى هل هممت بالكلام وخرج تمتمة خرساء .. لا شىء مشترك .. كيف ابتعد .. إن السير أو المشى اختراع وابتكار .. كانت الريبة قد تكاملت .. فى غيظ وكراهية .. وهو يبتعد .

- معلهش يا سيد .. يخلق من الشبه أربعين .

لزوم العتاب

١٩٥٧ - جريدة المساء

- ١ -

(حمد الله) واحد من طابور متسرب .. تستقبله المدينة .. يذوب في شارع أبو سفين وحوارى الجيزة وبين عشش الترجمان وأطراف شبرا والدراسة .. أما هو .. رحم الله الجميع .. فقد انتهى به المطاف .. إلى مسجد الحسين .. يردد في مرارة ضاحكة .. موالاً ملأ دماغه يومًا - والله إن سعدنى زمانى، لاسكنك يا مصر وابنى جنينة وجوا الجنينة ، قصر، وبجوار المنبر تستقبل يمناه حبات مسبحة طويلة .. وتكر حبات المسبحة ومعها الأيام التى قضاها فى (الفاعل) ، يحمل قصعة الإسمنت ويرتعش جسده كله وهو يخطو على سقاقيل لا تنتهى. وتتشابك الصور مع الحبات المنظومة .. جدران تنبت من بطن الأرض وتعلو حتى تنطح بطن السماء، صوت سليمان أفندى المقاول يقذف شتائم، لو فاه بواحدة منها، هناك فى قرية حمد الله، فى الصعيد، لارتفعت عصى غليظة، وسالت دماء .. لكنه .. فى مصر، والشوارع مشتولة ناس .. وفى الشغل معه أكثر من ثلاثين .. لكن الخوف طبقة ملتهبة تحت جلده ..

- ٢ -

حمد الله لم يتناول صحن الفول بالزيت الحار وقرون الفلفل الأخضر مع الرغيفين .. الوقت ضحى .. طلب من سليمان أفندى نص ريال .. سليمان أفندي فى هدوء ووقار أشار إليه، للمرة الثالثة .. أن ينتظر .. حمد الله قذف القصعة وسب :

- إدينى فلوس يا سليمان .

- أنا سليمان ؟

- يعنى رنا ؟ أيوه سليمان ..

- اخرس يا ولد أنا راجل باشتغل بمخى مش بكتفى زيك ..

- بلاش حكاية باشتغل .

- يا على أفندى .. شوف الولد ده حسابه كام .. ناس خسارة فيهم الطيب، لميته من الشارع وقلت أكسب فيه ثواب .. لكن تعمل خير .. ينقلب شر .. سيدنا النبى قال .. ما تكرموا اللئيم..

أنصاع على أفندى، كاتب المقاول .. ونطق : اتنين جنيه .. مد سليمان أفندى يمناه داخل معطفه الكاكى واهتز طربوشه .. حمد الله لنفسه : أيريده سليمان أفندى أن يشتغل على لحم بطنه ؟ كوب شاى وسجارتين .. وقد انتصف النهار، ثم مستنكراً، وكأنه قد تذكر: قال

سليمان أفندى قال .. حتة واد كان بيشتغل فى (الفاعل) من يومين .. عمل مقاول وهيعمل أفندى بصحيح .. كأنه شهادة .. أمر ربنا يا عم .. حمد الله سار وحده بحق هذه المرة وهو ما زال يقسم ، بينه وبين نفسه، أنه لا يدرى الذى سحبه إلى مسجد الحسين. يمكن سمع أحد المارة يذكره لمحدثه، ويمكن إحساسه بالخوف والهزيمة أوحى له فكرة المسجد، ولا .. مسجد سوى جامع الحسين.

- ٣ -

مدد ياحسين مدد. ما عاد فم (حمد الله) يفرغ منها ... كم كنت عبيطًا يا حمد الله يوم وطئت قدماك أرض لحسين أول مرة .. يومها بدت الحياة حول الحسين غريبة عليك حقًا .. كان فى الشغل معك .. الفواعلية .. يجهزون المونة .. ويملأون القصعات وتهتز جسومهم فوق السقاقيل .. ويرددون: ماقلنا بلاش م العتاب .. م العتاب .. ولقمة العيش عايزة كده يا عم .. مدد ياحسين مدد .. محاسيب .. وحَمَلة قماقم ومباخر وذقون وذكِّيرة ومقاطيع .. رجال وحريم يرددون .. من له يا عم فى الأمر أمر .. هو يسيرها .. هو وحده .. وأحس حمد الله بنفور خفى .. وانتهى إلى قرار .. لا عيش مع هؤلاء .. الحكاية مغرية .. فسيودع إلى آخر المدى، القصعة والشتم .. وشيئًا آخر أهم ..

الفزع الذى يثور داخله وينمل تحت جلده، كلما اهتز تحت قدميه خشب السقاقيل وجثة الواد حامد يوم ما وقع من الدور .. الدور ؟ .. والله ما .. انت عارف يا حمد الله .. يومها غطوها بشكاير الإسمنت الفارغة .. وما ناحت عليه امرأة .. حمد الله نام ليلته فى حى الحسين .. فى الصباح خطوة هنا وسؤال .. خطوة هنا وسؤال .. وكان فى محطة مصر .. ما طال به الانتظار .. لمح فلاحًا وامرأة خارجين من المحطة .. كل منهما يحمل قفة تتسع لعجل جاموس .. تقد حمد الله فى زهو يعلن أنه لن يساوم .. وسيقبل ما تجود به أريحية القرية .. أصل أنا كنت صعيدى .. وابتسم القروى .. فرح حمد الله وملأ صدره بنفس عميق .. فيما إذا كان تهديد ذلك السليمان .. المقاول الذى يزعم أنه بيشتغل بمخه .. قال بمخه قال .. وفى نشوة الحياة وانتصار الأمل .. عالج ربط القفتين بجلبابه .. وما كاد ينتهى حتى اندفع إليه .. رجل شرس يتبعه آخرون .. رفع حمد الله رأسه عن القفتين على شتمة قبيحة ذكّرته بأمه ولحظة الميلاد .. تدخل الفلاح - طويل البال - يا جماعة صلوا بنا على النبى .. حصل خير ..

- حصل خير ازاى يا بنى آدم؟!

- لما الحرامى يخطف القمح من الجرن .. حصل خير ..

حمد الله .. هناك فى العقيل البحرى.. مركز البدارى .. مديرية

أسيوط عمره ما قدر الموقف، كلمة خشنة .. يردها أخشن .. ويلحقها بالعصى، تفتح النافوخ .. ويحضر أولاد العم ، وهو كان فى قريته كان الموقف مقدراً مسبقًا .. كان قد استقر على مسلمات .. لكنه الآن .. في محطة مصر .. وحده .. ما أحسن الجماعة !..

فى هذه المرة حمد الله قدر الموقف .. وأمره لله، وحده بين كثر لهم شتائم تتحسس الأماكن من الإنسان .. وما يؤذيه أكثر أنهم لا يخجلون من ترديدها أمام الحريم، ويمسكه أحدهم من كتفه ويهزه فى غلظة :

- آخر مرة أشوفك فيها ..

- نأكل عيش يا جماعة ..

- معاك رخصة ..

كله إلا مسألة الرخصة هذه .. ويفاجئه أحدهم :

- يمكن واحد صاحب سوابق .

- وصاحب السوابق مالوش بطن يا جماعة ...

.. تضيق الفلاَّحة .. فتنحنى تفك القفتين .. تهم بحمل إحداهما .. إلا أن شيالاً يعترضها فى شراسة، ويربط القفتين بحبل، بعد أن قذف جلباب حمد الله بعيداً وحمل القفتين وسار ويتبعه الفلاح وصاحبته ..

اتجه حمد الله فى ذلة وانكسار، نحو جلبابه .. صدره يكاد ينطبق ... شرد ببصره يتابع القافلة تبتعد .. القفف كالمحمل النبوى .. الشيال .. الفلاح .. كومة ملابس سوداء داخلها امرأة .. كانت دمعة موت تطفح من عينيه .. أحس بكراهية شديدة للشيالين ولسليمان المقاول، أفندي .. أفندى .. أنت يا حمد الله ربنا .. تحاسب الناس ؟! وامتدت كراهية حمد الله إلى الأنفار الذين طرد من وسطهم .. وهم سكوت يردون بلا ملل .. ماقلنا بلاش م العتاب .. وتذكر فجأة سيدنا الحسين .. الذِّكر .. قراءة الأوراد .. حملة السبح والمباخر والذقون الطويلة .. السيوف الخشبية .. اللعاب الذى يسيل حبالاً من الأشداق .. مدد التى تردد دومًا .. من له فى الأمر أمر .. كلها على سيدك .. وهمس حمد الله حاجة تكفر .. أحس بدوخة تطوق جسده وتستقر داخل ركبته .. وراودته فكرة العودة إلى العقيل البحرى .. كاد يفرح للفكرة .. نظر إلى كفيه تغطيهما طبقة جلد غليظة ميتة كخف الجمل، من طول احتكاكهما بيد الفأس والمنجل .. و .. وقف فى ذهنه ، اعتراض هامٌّ: لماذا غادر القرية .. وفيم العودة إليها . كان طفلاً تقف على عينيه ألف ذبابة يوم انهالت عليه أمه بالجريدة .. خائب كأبيك .. جرى ورا بنات بحرى لكنه أبداً ، لم يتصور أباه يجرى ورا بنات بحرى .. مغطى بأكياس الإسمنت الفارغة .. والجدران الكافرة الصماء ترتفع .. والرجال تردد .. ما قلنا بلاش م العتاب .. ولم تَنُحْ عليه امرأة ..

وسار حمد الله تغوص قدماه في رمال ناعمة .. حاصرته السيارات تتتابع وراء بعضها .. قطيع أغنام تجرى على جسر ضيق .. الناس يروحون في خطى واسعة .. سريعة لا عين تقف عنده .. ولا ذراع تلوح له بالسلام .. الترامات تتلاقى وتفترق ، برز أمامه تمثال رمسيس. التمثال صعيدى يقف في شهامة .. بلا خوف .. أشعة الشمس تملأ جنبات الميدان الكبير .. السماء، لدهشته ما زالت فوق .. رفع بصره إليها زرقاء صافية .. كتلك التى فوق الجبل .. الجبل الذى ترقد في ظله العقيل البحرى وعزبة تاسا - ونجوع مركز البدارى .. آه .. وكادت أشجار النخيل الكثيفة العالمية يتراقص جريدها في الميدان .. وسار .. وشيئًا .. فشيئًا .. أحس أنه يمشى على أرض أسيوط المرصوفة وسأل أفنديًا وجيهًا .. واستقلَّ ترامًا وما إن رأى الكمسارى، حتى قال ضاحكًا:

- تذكرة للجيزة يا سيدنا لفندى ..

- ٤ -

.. في الجيزة .. شعر حمد الله بالألفة .. الشوارع أمامه تغطيها جلاليب فضفاضة أكمامها ضيقة .. عمم بيضاء ملفوفة على شكل هرم

مصطبى .. شىء آخر أهم .. فالشيالون هنا لا يبدو أنهم يعرفون أصول المهنة وليس لديهم هذه الشارات النحاسية المهيبة التى تربط على الذراع ويسمونها رخصة .

.. نزل حمد الله .. الجنيهان ضاعا .. فى آخر الليل مرة شلن .. مرة نص ريال .. النوم داخل عربات الترام .. للجوع لسعة كافرة .. لسان حمد الله .. تحرك .. شيال يا افندى .. يا حاج يا ست هانم .. وبعد أن تبتعد وعيناه على عجيزة تروح وتجىء كالذراع الوابور الميرى .. أشيل بلاش والنبى .. حمد الله ظهره إلى جدار دورة المياه .. سمع صوت عجلات ترام مقابل .. رفع عينيه فى كسل وتعب .. ولمح شيالاً عجوزاً ينزل من الترام حاملاً حقيبة كبيرة .. تفحصه ظنه ليس من شيالى الجيزة .. لدغة ثعبان :

- منين يا بهيم ؟

- يا عم أنا من محطة مصر .. وموصل البيه ..

- كافية توصيلة المحطة هناك ماتأخدش رزق غيرك .

أراد صاحب الحقيبة أن يتدخل، فأعلن إليه حمد الله أنه ليس من حق أى شيال غريب أن يعمل فى الجيزة ..

فى البيت طلبت منه سيدة المنزل أن يشترى بقرش ثلجًا .. عاد

مسرعًا محاولاً استرضاءها.

- آدي الناس الشاطرة.

- أي خدمة يا ست هانم .

- تشتغل عندنا يا ابني .. أبسطك .. تأكل من أكلنا .. تنام في أوضة .. أكسيك .. وجنيه في الشهر غير إكراميات السكان ..

بُهر حمد الله .. أكل .. نوم بين أربعة جدران مثلما ينام سليمان أفندي .. جنيهات أيضًا .. ثم يتراجع .. تخدم في البيوت ياحمد الله ؟ وأخيراً ..

- أنا خدامك يا ست من غير حاجة ..

.. في الليل استقبله بير السلم .. في الصبح .. يا زفت الطين .. تل من الحلل والأطباق .. ويحس بالضيق .. شغل الفاعل أسهل .. يعود يعلن لنفسه .. البني آدم يقدر يتعلم أي شيء .. أي شيء .. ويدور حمد الله على السكان ..

.. إبراهيم أفندي الطالب يستقبله محييًا .. يعزم عليه بكوب شاي وسيجارة ومحذراً إياه من الدبة .. صاحبة المهدوم .. البيت ..

زكي أفندي الزعلان .. طالب أيضًا .. لكنه يهدده بأنه لن يدفع مليمًا واحداً .. إذا تأخر في الحضور الصبح .. أو رفع الأسعار ..

- أصل أنا عارف شغل الخدامين .. لا ذمة ولا دين .. منين ؟

.. الست أم كاميليا تأمره .. دون أن تنظر إليه ..

- ما تعبرونا يا خلايق ..

الست هانم تمد يدها ..

- هات البقشيش اللى إداه لك حضرة الظابط ..

يا ستى والله ما شفت ظباط أنا فت على إبراهيم أفندى وزكى أفندى والست أم كاميليا والست الصغيرة .. يمكن مراته ؟

- لسه مجوزش .. آه صحيح مراته .. تب خد .. هات .. وهات .. وهات ..

- ٥ -

- يا حمد الله .. يا واد يا حمد الله .. يا اطرش ..

.. الولية عقلها فك .. أطرش .. أطرش .. أبقى صحيح كده لو رديت ..

- غبت ليه؟ الدكان اتنقل ؟

- وحياتك يا ست الدكان اتنقل ..

- وفين الباقى يا حرامى ؟

- وحياتك يا ست ما فيه باقى ..

- أنت هتجننى .. الرغيف يا واد بصاغ؟

- وحياتك يا ست انتى تجننى بلد .. الرغيف أحسن من نص جنيه ..

... ...

- لا لا .. يا زكى أفندى .. كله إلا كده .. الغسالة كانت عندك إمبارح والست سناء دى بنت الست الكبيرة .. صاحبة البيت فضلها علىَّ .. أكل وشرب وأوضة .. مش حكاية فلوس وحياة الست أم هاشم أقول لك والله حد غيرك ما أعمل له العملة دى .. هات الجواب يا سيدى .. عارف .. عارف .. ريال مرة واحدة ؟

... ...

- اطلعى بالدخان يا فهيمة .. يا ست غسالات الحتة .. والله إن حلفتى ع السجادة غسيل والذى منه .. كده وإلا أكسر رجلك زيهم .. إنتى ستهم .. يا سلام .. سيبك من الكلام التقيل .. الأولاد وأبوهم العيان .. شوفى نفسك يا فهيمة ..

- ٦ -

وكله كوم يا حمد الله والست الصغيرة، كوم .. الضابط لم يتزوج .. آه .. لا .. دى .. مراته .. آه منها الدبة صاحبة البيت .. ألعن من سليمان المقاول زى ما قال إبراهيم أفندى ..

.. فوجئ حمد الله بالشتمة الجديدة .. وشك شؤم .. حضرة الظابط .. هـ .. يعزل .. وعاها حمد الله .. وانقبض صدره .. لن يرى الست الصغيرة .. وجهها أبيض مدور كالقمر جسمها كالعروس فى الصباحية .. صوتها الناعم .. هى كلها .. أمام الباب بجوار الشبابيك، حول شقتها .. يعس حمد الله .. يتصنت ويستمع وقلبه كله وجيب .. وحبات عرق تلمع فوق جبهته ..

- أمر النقل صدر .. ومش هاعرف آخدك معايا ..

- هـ .. تعمل إيه ؟

- أنا مش عارف ..

- إنت يا سامى مش قلت .. مش قلت ..

- قلت إيه ؟

- أنت مش قلت يا سامى .. إنك ..

ويسمع حمد الله صوتًا قبيحًا من الحلق وقهقهة عالية ..

- دى .. آخرتها يا سامى .

- إيه آخرتها ؟

- إنت مش قلت ..

- ده معقول ؟ واحد زيى يجوز، واحدة زيك ؟ إنتى نسيتى إن أبوكى كان خدام عندنا ؟

- أبوك مش أحسن من المرحوم أبويا يا سامى ..

- اخرسى يا قليلة الأدب .. بابا شغل أبوكى يكسب فيه ثواب .. وأنا خليتك بنى آدم، تعمل خير ينقلب ..

- أنت خليتنى بنى آدم يا سامى .. ولاً كنت بتاخدنى .. وتجيبهم هنا ولما حلفت لأطفش قعدت تقول إنك هاتعيش معايا .. والآخر تجوزنى؟

- أصلك غلباوية - ارجعى البلد ..

- أرجع البلد لاخواتك؟

- ما تزعليش ... أجوزى حمد الله ..

... ...

.. أجوزى حمد الله .. لقفها المحب وداخ ..

وفى الصبح كان يترقب صوتها .. تطلب منه أن يشترى .. وناولته الفلوس ولم يتحرك .. حوّل نفسه إلى تمثال ..

- أنا إمبارح سمعت ..

- سمعت إيه ؟

- قال لك اجوزى حمد الله ..

- اخرس يا قليل الأدب ..

.. واختفى سامى (وحيدة) لم تعد تظهر إلا قليلاً .. حمد الله لا يمل تكرار ما سمعه .. تردد كثيراً قبل أن يهددها .

- دا حتى البوليس جه هنا ..

وحيدة فاجأت حمد الله :

- معاك فلوس تعيش بها ؟

- طبعًا يا ست وحيدة .. معايا .. معايا قوتى وعافيتى ..

- اتلهى . بلا قوتك .. بلا عافيتك .. ما أنت صايع .. ضايع .. خدام. سمسار نسوان .. تاخد من الغسالة شلن ..

- لا وحياتك يا ست وحيدة .. الحاجات دى كلها أسيبها .. بس اجوزينى .. أنا هاشتغل وابقى صاحب عيلة .

وكمن تلقى بنفسها من فوق كوبرى قصر النيل ..

- هو حظى الاسود ... منه لله ..

....

- سألناك الفاتحة يا سيدنا الشيخ ..

- سألناك الفاتحة يا مولانا ..

وتدخلت أصوات ملهوفة .. يا عم الشيخ مدبولى .. يا عم الشيخ مدبولى .. سليمان بيه اللى هيوسع المسجد ويبنى الدورة.

.. من تحت الأسمال السميكة .. واللحية الكثة الطويلة .. والعمامة الخضراء الكبيرة .. سدد (حمد الله) الصعيدى القديم نظرة سهتانة .. طويلة .. لفت كل أعماقه الجديدة ..

.. سليمان واحد من العباد الصالحين الذين فضلهم الله على غيرهم درجات ..

- ازيك يا سليمان؟

مد سيدنا الشيخ مدبولى يده .. سمينة ناعمة .. زحف لحمها على أظافرها الطويلة تركها فى يد السيد / سليمان .. صاحب شركة المقاولات المتحدة .. دفع حمد الله كفه إلى أعلى بحكم العادة ولثمها سليمان ..

- روح .. روح يا سليمان .. الله ينصرك ..

... ...

- مدد يا سيدى مدبولى .. يا ابو سر باتع .. يا ابو سيف يخرق الصوان .. مدد لا سارق .. ولا قاتل .. ولا هارب من أحكام .. مدد.

.. التقط حمد الله صوت (الشيخ رضا) من خارج المسجد ..

يسحب حمد الله سيفه .. فى كن (الشيخ رضا) يتربع بين أكوام البخور .. وعلب التشوق والعنبر .. وورق الكافور.. ويتناول من يدها المكتنزة فنجان القهوة .. سادة يعوم فيه ويتسرب فى قاعة ذوب الأفيون وتعد (الشيخ رضا) يدها بالقمحة .. وينتشى حمد الله ..

.. غداً الجمعة .. سيتخفف من أسماله .. ويغطس من حى الحسين ويقب فى شارع شامليون .. يرتفع بالمصعد .. يضغط على الجرس .. يترك الأثاث الفاخر .. يفرش منديله المحلاوى .. يفرد أرغفة أربعة وطعمية وتجلس إلى جواره .. وحيدة ..

- كلى يا وحيدة .. يا ريت تعقلى .. وتسيبى دا كله .. مفيش يا وحيدة أحسن من اللقمة الحلال ..

- يا حمد الله .. اعقل .. كده كويس .. خد سيجارة ..

- السجاير فى الدين مكروهة .. طاوعينى يا وحيدة .. نرجع الصعيد .. نروح بلدكم نزرع الجبل ..

- ياحمد الله أنت صعبان علىَّ ..

... ...

- خد كمان اللقمة دى يا سيدنا الشيخ .. إنت عندى أغلى من الدنيا .. والأهل .. والعيال ومن الناس كلهم ..

- هاتى يا فهيمة .. كمان فنجان .. ارتفع صهيله .. وارتفع عساه ينسى ..

- يا حمد الله .. إنت صعبان على ..

وصوت فهيمة .. الغسالة القديمة يشده بعنف من حى شاملبيون إلى حول المسجد ...

- خد يا حمد الله - خد يا سيدى الشيخ مدبولى .. خد كمان .. اللقمة دى .. دا .. إنت عندى أعز من الدنيا كلها .. عشانك سبت العيال وأبوهم .. وسبت الدنيا كلها ..

هاتى يا فهيمة .. هاتى كمان فنجان ... وكترى المدعوق ..

.. وانتشر الخدر فى الجسد المكتظ .. وصهل .. وارتفع صهيله .. وامتشق السيف الذى يخرق الصوان .. عساه ينسى ..

- يا حمد الله .. انت صعبان علىَّ ..

الشلال والكماشة وأشياء أخرى سخيفة

١٩٦٤ - جريدة المساء

الظلام مشبَّع بالعرق البارد .. الصمت القاني يعانق اللون الأسود .. ما من بصيص .. ما من نأمة .. نعيق الصراصير الجنائزى خنقه الشتاء الذى يخنق كل حى .. ذرات التراب المتراكمة نسجت رداء كثيفًا كسا كل المكان .. المدقّ الذى صنعته قدماك يا وفيق فوق التراب من باب الشقة الباهرة حتى حجرة النوم ودورة المياه ، ليدفع إلى وعيك بالمدق الضيق الذى صنعته قدماك - إياهما ذات مرة - فى واحدة من شقق طنطا ، منذ عشر سنوات، تزيد أو تنقص، أنت لا تعى الحساب، لقد هربت مرتها من طنطا ، أنت لن تهرب هذه المرة .. على أن كل شىء يجب أن يبلغ مداه .. لا شىء يا وفيق يقبل أن يظل معلقًا إلى الأبد .. أخذت سكنك على مرمى نظرة من الأهرام .. أنت ما قبعت هنا روحًا خرافية مع الأرواح التى تطوف بمقابر المصريين إذا جن الليل ... «إنسانيات» .. ابنة عمك .. اختارت لكما هذا السكن .. قالت هنا سنعيش يا وفيق .. على أننى لم أخترك يا إنسانيات .. إن عقلى يرفضك تمامًا .. لن أناقش أمرًا بمفردى .. يجب أن تأتى .. لا قوة تستطيع أن تمنعك عن الوفاء بوعدك .. علينا أن نملك الحياة ولو لحظة

من عمرنا .. ووهج السيجارة مشتعلاً يؤذينى . أريد وهجًا أسود . يائسًا كهذه الحجرة .. لا أريد نبض حياة لغير دقات قلبى الواهنة .. لن أقول طال انتظارى إليك .. فالسيف الذى يقطع غير الرقبة جبان .. لن أتوقع سوى رقك المتدلل على الباب .. لا طاقة عندى أن أتتبع تحايلك على أمك .. الأتوبيس الذى ينقلك، خطو قدميك ، حتى تطرقى بابى، ثم لا يقرعنى سوى الصمت، وأعود أصطحبك . واقفة أمام المرآة، تضيفين اللمسات الباغية إلى حاجبيك، ونقط الدم الصارخة هدوءاً على شفتيك .. وينفجر وجهك جمرة سوداء تجلد الثلج الذى الذى عشّش داخل صدرى.. وترسب فحمًا ميتًا على جدران الشرايين. ثم لا يقرع بابى غير الصمت .. مهما خاب سمعى، فلن أسلم أنك لن تحضرى الليلة ..

هذه فكرة فوق الاحتمال. فوق الممكن. فوق التصديق. لحظات قليلة وسأفتح الباب .. سأفتحه بنفسى، هذه إمكانية ، أنا وحدى أملك تحقيقها .. ليتنا لا نعلق سعادتنا على إرادات الآخرين. إن بقائى هنا يعنى قدرتى على أن أفتح الباب، لا مفر من ملاقاة خيبة الأمل دون أن نقيم ذاتيًا فى عروقنا كامل القدرة على تجسيد كل خيالات المخ.

الليل كاد أن ينتصف يا إنسانيات وما اهتزت جدران هذه المقبرة .. بشاعة قاتمة بلا سراب أن أستقبلك داخل رأسى .. أن أدخلك الشقة وأغلق علىّ وحدتى . وأضغط بأظافرى حتى تدمى راحة يدى. طرقة واحدة من ظفر سبابتك تغنى عن كل شىء .

الظلام يتحول إلى خلفية موسيقَى بشوش تشع كالكهرمان .. روحى المبعثرة كملايين قطع الزجاج أصاب لوحها السرطان، تلتئم .. ما أشد هوانك يا وفيق .. على أنك تلمح هناك بعيداً داخل صدرك فى أعماق الأرض السابعة.. رضا هامداً ومستسلمًا لا يكاد يبين .. وميض رغبة أن يتحقق الرعب ولا يدق ظفر إنسانيات باب سكنى .. راحة الموت اليائس .. أن يموت كل شىء .. أن تموت يا وفيق ، أن تموت إنسانيات . أن يموت الفزع الذى بينكما .. بعد الدفن تهبط كل ألسنة اللهب .. يستقر فى القاع همود واستسلام تغلفهما راحة مبسوطة : إن كل شىء يسير كما يجب .. على أن إنسان الحياة يطيق كل شىء، فقط لو أن العقل هو السيد. لو أنه هو السيد ...

- إزيك يا وفيق؟

ما كان يجب أن تحضرى يا إنسانيات ، إنى لأنسحق رعبًا وخوفًا من الموعد القادم .. ولا فكاك من أن تعششى معى حتى نهاية العمر .. ولا يجب أيتها اللعينة أن تبتسمى بعد كل الذى كان، لن أصدقك أن الساعة لم تتجاوز التاسعة مهما قدمت من آيات .. لا تطالبينى أن ألقاك بكلمة طيبة .. أنا لا أجيد حَبْك القول .. اللهب لا يثمر سوى الحريق .. إنه لخير لى ولك أن يصفى كل ما بيننا.. ليت ما بيننا يقبل فصل الخطاب .. يجب أن تحددى موقفك .. سأتعجل النهاية ولو أسلمتِنى إلى يأس بلا قرار . لا بد من أن نضع النهاية

الليلة .. والآن ، فلنتزوج يا إنسانيات ولن نتحدث إلا فى الظلام .. ولتعرفى جيداً أنى لا أطيق النور. الظلام صديقى ، إنه المساحة التى فيها يتمدد وجودى . إن الظلام وطني وجنسيتي وملاذى، إنك فى الظلام لست إلا الشبح الذى أخلقه أنا .. لست إلا الصورة التى تعيش داخل مخى .. لا أريد لوجودك أن يتمرد علىَّ بضوء المصباح. إنك فى الظلام يا إنسانيات سجينتي . لكنك أيتها البهيمة لا تفهمين إلا بقرنى الصرصار .. ولا تهددى بمغادرة الشقة فدون ذلك حشرجة الموت .. اللعينة تجب سلاحًا قاتلاً .. كأن روحها ترسانة مغولية تزخر بكل بداءات... الإنسان .. صدقينى أنت . أريد أن أحدثك مليون ساعة . أريد أن أضع رأسى على صدرك وأموت .. صدقينى أنا لا أعرف ما أريد .. لا أعرف ما أريد .

ارتعش ظلام الحجرة مدمراً محمومًا .. جبروت الفيضان تدفق مهتاجًا فى قنوات الإنسان الضيقة .. لمبة الجاز الصغيرة تقتعد المنضدة. كأسان حائرتان تنقلان اللظى إلى الجوفين النهمين .. وفيق يتنبه إلى ثقل واضح فى أصابع يده اليسرى .. رعشة لا إرادية تهز البنصر والخنصر . طنطا تعود إليه، انقباض قاسٍ يسقط على صدره .. شوارع طنطا على امتلائها لا يربطه بناسها حتى وشيجة النوع .. شقته هناك .. كيف يتحول السكن إلى قرافة . كاد وفيق أن ينسى .. الخوف .. الذى قتله فى الزمن البعيد، الوحدة التى أحكمت ربقتها

حـــوله .. لا صـــديق .. لا أهل .. لا ناس . طب الجـــسم والنفس والأعـصاب.. الجلسات الطويلة مع أتبـاع فـرويد . شمهورش العـصر .. كم صـرخ فى وجوههم .. أريدها ارجمـوها .. عـفا الله عـمـا سلف ، لم جلسات الكهرباء تدعونها تخترق دماغى؟ لن أملك القدرة على أن أضع رأسى على وسادة ولو ألقيتم بى فى وجه صاعقة .. أعيدوا الشاردة .. أعـيدوا الزوجة التى أحببتها قبل وبعد كل شىء. قـانون الطفو .. يعـود يتأمل فى استـغراق الكائنة الأخرى التى تجلس قـبالتـه .. لا يصدق أنه بعـد كل الذى كـان .. يعـود فـيحب هذه .. لكن اللعـينة هى، لواحظ الطفلة التى منحت قلبـه أول فرح، وأول من لقنته ألف الاكـتئاب .. لم أنسَكِ يا لواحظ .. أنت أمامى تجرعين الخمر أيتها الطيبة .. ملامحك فى وجـه الشيطان الذى أجالسـه .. ولا أصدق أنك يا إنسانيات بعد، البنى آدمـة التى أخترتها ، كليـة الآداب على العين والرأس، قسم اللغة الإنجليزية على العين والرأس. الدكتور فهيم الذى لا تملين الحديث عنه لا بأس، تعـهدك طالبة وخريجة، لا بأس ، ألحقك بالعمل فى دور السـياحة والاستعـلامات والصحـافة، لا بأس. لكـن لم أنت بالذات قـدرى؟ .. لا تغضبى. بعيداً عن دمـاغى أى امرأة، كأى امرأة لم أنت بالذات؟ نحن لا نملك يا إنسـانيـات دليـلا سوى العـقل .. تنكر إنسانيات أن «وفـيق» يحبها .. تعـود أن ينال كل ما يطلبه منذ طفولته .. بعد الزجاجة الثانية تواجهه أنه يجب فيها زوجته الأولى .. مطلقته .

- وكنت بأحب مين فى زوجتى الأولى ؟ الرد لا يعوز إنسانيات .. وفيق حدثها مليون ساعة .. سطور ماضية أمامها مضيئة بالفسفور، في عتمة الأسرار زوجته الأولى صورة من تريزة بنت الصراف وتريزة فيها ملامح لواحظ .. خادمتهم الصغيرة .. إنسانيات تضيق الخناق ، لقد نسى وفيق يوم اصطحب زوجته الأولى إلى بنت بائع خضروات ليعلن إليها أن البائعة تحمل كل ملامح الزوجة .

المرأة لا تنسى .. لا تنطق إلا قبحًا ، ظلام الغرفة يرتعش عنيفًا محمومًا. الفيضان يتدفق رقراقًا فى قنوات الإنسان الضيقة. ولا عودة لك إلى منزلكم يا إنسانيات .. هنا ستعيشين ، ماذا تريدين أكثر من حبى . لا يجب أن تقيمى محكمة تفتيش ، وترددى أن عقلى غير مقتنع بك. ليكن كل شيء، ماذا يهم ما دمت أنا مقتنعًا بك عقلى أم أنا ..؟ أنَجْوَى عشاق هذا ..؟ أملئى كأسى لا تدعيها بعد الآن فارغةً، عدينى يا إنسانيات، القدرة تعوزنى أن أمر بتجربة الافتراق مرة أخرى .. لا يجب أن أطلعك وأنت تعلمين . الأولى أحببتها بكل شوق أرضنا إلى سيل النيل . الكأس فارغة، فى الليلة الأولى .. الكأس. أهدنى ، أعرف أنها لم تفرغ .. لم تكن فى نقاء حياض الصعيد، اللعنة تلحق بكل شيء إذن كن مستسلمًا مباحًا مهزومًا.. الصلوات الطيبات لك يا إيزيس، من دموعك أيتها الجدة جرى حابى العظيم ومن دموعنا ما زال يفيض .. ماذا يهم إذا كان الهكسوس غزوا أرضنا فى غيبة

فرعون .. لتستغفر الخاطئة جدتها إيزيس .. ربة الطهر والوفاء ، لكنها أبداً لم تفق .. لكأنها هى التى اكتشفت أن الاعتداء عمل زنيم . محال أن تلتقى هنا العيون .. عيونها التى استقيت منها كل جرعات الرى . ما عادت تجرؤ على مغادرة الجفون .. أخفيت جزعى فى تابوت .. الحب يطهر كل الآثام .. هل قلت الحب؟ الكأس نصف فارغة . لم أكن حتى ذلك العهد الخالى قد رفعت إلى شفتى كأسًا، حارات طنطا النائية .. شهدت فلاحًا لا تغطى جسده بُرْدة الفلاحين، يضرب فى الظلام والوحدة، يستعين بهما على قراءة حجر رشيد .. العذراء استبيحت . العذراء فى قلبه هى الحياة .. العذراء أم الحب يطهر . العذراء لم تكن عذراء . ما كان كان .. لا يقدر أن يسترده إلاه .. الشمس غربت وضاع يوم .. صور مجنونة، السابقة .. زوجته بوجهها الطيب البرىء. جسدها داخل فستانها يغطى الأذرع وما تحت الركبتين . قدماها الصغيرتان .. صوتها الهادئ الخجول كيف حدث ما حدث ؟ مَن صفع الوجه الطيب ودهكه بطين البركة الأزرق الخبيث؟ من فك إزارها وعرى الجسد؟ كيف طرحها؟ هل قاومت ؟ وإلى متى؟ متى ضمته هى إليها؟ الكأس يا إنسانيات يا ابنة العم .. لا شىء كافٍ ولو شربت ملء المحيط خمراً .. على الصور أن تتوقف عند حل .. كيف نفترض أى شىء إذا لم يكن هناك أى أساس للافتراض؟ كيف أطرد من رأسى فخذيها تعتمد عليهما سماء الشياطين؟ كيف ألغى من أذنى همهمتها فى لحظة

شرطها الغياب حتى التلاشى؟ أيتها الغوريلا، لقد غادرنا الكهف ، كيف السبيل إلى حرق المدينة؟ كيف العودة إلى راحة الكهف؟ صورتها بضة .. حية .. دافئة .. جزئيات تختلط مخبولة ، شفتاها مبللتان بين شفتيه، كفها تحتضن الأخرى وتضمها .. ليتنى أعرف دقائق أحداث كل ثانية .. وكيف أجهل ؟ قالت قبلا أم لم تقل ، ماذا يهم ؟ ثانية .. وكيف أجهل ؟ قالت قبلا أم لم تقل . ماذا يهم ؟ لا يمكن الإخبار عن أى شىء . . طوال ساعات الحيرة .. الرغبة فيها عنيفة طاغية .. فلتحمل حبلها على ظهرها وتسرح .. يجب أن تبقى .. لكن . لكن .. فاشلاً أفتِّش عن مقابل داخلى لكلمات العار . مقابل فى خلفية ارتعاشاتى .. مقابل قشعريرتى . مقابل عضوى كالنار التى تشعلها صورة فخذيها مرفوعتين، الرغبة فيها عنيفة طاغية . يا جدى . يا إمبراطور الكهف . ألا تسأل جدتى أين باتت ؟ ألا ترى ذيلها أيها الديوث هامداً ؟ أرهقتنا حضارتك يا إيزيس .. ما بالك إذن تجوبين المسكونة بحثًا عن أوزوريس .. يا حَوَارى طنطا .. شجرة الجميز القديمة الهائلة .. ظلِّلى اللائذ .. يا ليل .. يا من تلقى على الحقول سلامًا .. نقيق الصمت يردده الفراغ .. الإنسانة التى أحببتها تبرز .. من مآقيها تنهدل دموع ساكنة .. أصدقك أنك أحببتنى .. وأنا أحببت عينيك الهادئتين .. أحببت لهفتك على لقائى .. أحببتك كلك .. طمى النيل يغطى أرض الدلتا .. لنعش إخوة . لتكونى أختًا .. ارفقى

بشطآن النيل يا دموع إيزيس .. ستكون أختًا .. فقط يجب أن لا نفترق .. سننفصل يا رفيق .. أنا لا أحتمل كل هذا العذاب . أنا قاتلة إن بقيت فى منزلك .. ستنسى الحب، ولن تنسى السقطة . وأنا لن أنسى سقطتى .. أو لن أنسى .. ماذا يهم؟ أنت قلبى وفى غمرة الحياة لا يبقى سوى الحياة .. وهل رضانا عن الحياة شرط لاستمرارها ؟ أنا لا أكذبك .. هل الحب يطهر ؟ .. لكن الشمس أشرقت ستة آلاف سنة وغربت .. لن تتوقف الشمس .. انتهت حموة الموسى .. وفى الأحلام ستلمع واقعة كئيبة .. لكن متى خلت الأحلام من الرعب والكآبة وصراخ الضياع؟ كذبة بلقاء .. إن الحب يمنح الغفران . العذاب .. ليس إرادة عقل . حمى تسكن فى النخاع .. عدت من مكتبى بليل .. محامٍ أنهتكه مشكلات الناس ومن حقه ضجعة رخية .. أليست هناك جراحة ذكريات .. تبتر الأجزاء المعطوبة؟ دخلت الشقة .. كانت مظلمة تمامًا .. طار التعب من جسدى كله .. كالقطة هاجمها كلب شرس .. أوقدت النار ، الشقة فارغة .. فارغة تمامًا .. حجرة النوم فارغة .. السرير فارغ . معبد سطا عليه لصوص التاريخ. النداء ردّته الجدران القاسية الصمّاء ... حملت المجنونة ملابسها .. ما أغبى بعضنا فى معالجة الأخطاء !. وعادت صورتها تملأ كل فراغ الشقة .. خطت إلى داخل دماغى فى أعصاب العين وأعصاب السمع .. بعض شعراتها ما زالت بالمشط على حوض الغسيل .. انتزعت صورها من داخل البراويز . فى

المطبخ كوب اللبن وباكو الزبدة وقطعة الجبن .. عشائى الأخير .. على المخدة تركت كلماتها . لا لقاء لنا بعد .. قدر أن نسير فى طريقين متقاطعين .. تقابلنا فى نقطة الالتقاء .. جذب كل منا طريقه .. قدر .. خبرينى يا إنسانيات . ماذا يفعل الإنسان إذا خلت الأرض فجأة من كل الناس؟ أين يجرى . إلى من ...؟

كل خطوة يخطوها فى الاتجاه الخاطئ .. وقوفه فى مكانه مستحيل .. يقرع أذنيه فراغ المسكونة الواسعة .. تضيق ضلوعه إلى داخل قلبه ويتسع صدره بقدر خواء الأرض التى لم تعد أرضًا .. ودون أن يشير السادة مطيِّبو النفس، هجرت طنطا .. شوارعها .. حواريها النائية .. الجميزة .. المكتب الذى دخلته هى مرة . كلها تتحرك داخل فترينة زجاج .. واستقبلتنى مدينتكم .. القاهرة . أليس لى الحق فى كأس ليست أخيرة ؟ عشر سنوات كاملة .. الأحلام من الرعب والكآبة وصراخ الضياع لملم المهزوم الطريد حواشيه .. وانطوى العبد على كلمات آمون .. ترددها الحجارة . آمين . أمين . آمين . ورأيتك . لا أكتمك . لم تكونى شيئًا .. فالاحتراق المقدس الذى يبسط مهاد رابطتى بالناس.. ليس واحداً من صفاتك .. حتى الطيبة الساذجة ما كانت ملمحًا من ملامح وجهك . إصرارك الدائم على أن تحيى كل ما لحقك من إساءات ، إحياءً تصطك له أسنانك كلها ، أحسست بكراهية نحوك .. على التحديد ليست كراهية . قد تعوزنى الكلمة . عمومًا .

كراهية بلا حقد . بلا إصرار ، كراهية ، لا تضيق لها. عيناى .. كراهية بيضاء - كراهية فى لون الزهرة الصفراء - فى لون الوردة الحمراء . خالية من اللون الأسود ... كراهية ما دريت فى غمرة كلماتنا .. وهمساتك التى لم تنقطع .. أنها المصيدة الأزلية التى يسعى دمى مهدوراً إليها بكل طاقات الحياة .. والشقاء ..

ولا تقبلينى أيتها الشيطانة .. أنا لست عذراء . حياتى كانت هنيئة .. أنا لا أنكر . لم أعرف الجوع . أنا لا أنكر . وما علاقة الفراغ بالحب؟ لا تنطق النساء إلا قبحًا .. زوج أوجينى لم يعرف الحياة الرخية .. وزع دول أوروبا على أقربائه . لم يكن العقل الذى فعل ذلك هو الذى عبد أوجينى .. الفراغ فى عقلك وحده .. أنا لا أريد أن أقنعك بالحب .. تلك منطقة وراء الاقتناع تريدين .. أن تقنعينى بالرفض هذه حسنة تحسب لك .. أنت ترفضين .. تملكين التبرير . أنت تقفين فى منطقة الرفض حيث يستطيع من يقف فيها أن يعطى الجواب. لكن لم يحدث أن قلت لا . قبل الآن .. ماذا يكون ذلك إذن إذا لم يكن لا .. صدقينى أنا لا أفهمك أنا لست ساذجًا بالقدر الذى تتوهمين .. أعرف أباك فهو عمِّى . رحمه الله .. لم نلتق أكثر من مرة أو اثنتين .. كان شاعراً .. جرنالجى أو شاعراً .. سمِّيه كما تشائين . التحفز مفزع يرتسم على ملامحك ، اصمتى إذن ، دعينا للصمت ، فى الصمت أنت رائعة. أستطيع أن أتحسس جسدك كله بخيالى ، أناملى فى الظلمة تتلمس سمرة وجهك الملتهبة .. إنسانا عينى يرسوان على شفتيك ، شوقى إليك

غائبةً أقسى ألف مرة منه إليك ممددةً إلى جوارى. غيابك يعطى دماغى الفسحة أن يخلقك تمامًا كما يريد ، أنت فى غيابك معبودتى التى أصنعها على هواى .. أحذف وأضيف وأتمثلك أخيراً بشراً سويًا ، ما يضيرك أن أضع فيك هدوء لواحظ وعينى تريزا وشفتى زوجتى الأولى .. ومن بنت بائع الفاكهة حزنها السرمدى الصامت؟ احتجاجاتك كلها هراء .. أنا أحبك لأنك أنت .. وأنت أنت لأنك كل من أحببت وأحب .. ماذا بعد؟ ليس جنونًا - أريدك حتى الموت - ليس جسدك ما أضمه .. إننى أحتضن قدرى الذى لم أختره .. أمنية وحيدة تبقى بعد كل شىء وقبل كل شىء .. أن أضع رأسى على صدرك يا إنسانيات .. وأموت .

ظلام الشقة يرتعش محمومًا .. الفيضان يتدفق متهافتًا فى قنوات الإنسان الضيقة . أملأ أنا كأسك .. لم نعد نصلح إلا للحب .. العقل الذى يبقى فى الرأس بعد برميل خمر .. عقل حصان .. منا نفضت الطبيعة يدها .. ما عدنا نصلح إلا للحب ..

عقل المرأة أفق مظلم تحدده ومضات لا تنير . لم أحدِّثك عن حكايتى مع الأولى قبل الليلة . ماذا يهمُّ ؟ أنا أتطهر فكرة قديمة .. أنا أحترق لا أتطهر .. أنت الأخرى .

أنا لا أحب ذلك .. أنت هكذا طاهرة .. أعرف كل ما ستقولين ..
حكايتك مع أحمد مطلقك ، شاعر وصحفى وناقد .. أعرف . أحَبّك
حتى نخاع عظمه . أعرف أنه أقام له عشًا ، أعرف .. أمك حكت .
نفورك . كل النساء شموسات .. اللجام للفرس ، والحزام للجمل ،
والمرأة ماتزال على هواها . ملأنى التقزز . وأمك تحكى ، كيف قبل هذا
الرجل أحمد أن يستقبل آخر فى سكنه .. هل اعتقد فعلاً أنه خالك
عجوز أو شاب .. إنه آخر يقاسمه زوجته . كيف؟ ماذا يهم ؟ إن
السماء لم تنطبق على الأرض بعد . إننا لا نتزوج لننجب . الإنجاب
هدف الطبيعة ومشيئتها ، تنفذها فى غفلة ما . أمك لم تستطع أن تفسر
لى . أقرفتنى مرتين ، من حكايتها هذه ومن التباهى الرخيص فى
كلماتها . عن جمالك . هل كل الأمهات قوادات لبناتهن ، كانت
تصفك كقوادة محترفة .. عذراً لكن أنت يا إنسانيات .. ألا نستطيع
أن نكفى على الخبر مأجوراً . تلك خطيئة الذى كان زوجك .. أعرف
أن الآخر كان يشاطركما السكن ، هذه لا تؤاخذينى دعارة .. ملامح
الغضب تشكل وجهك الساذج . غفرانك - ألم أقل نكفى على الخبر
مأجوراً - تكفينى بيانات موظفى الإحصاء التى أعرفها عنك .
تكفينى . ليس تمامًا حسب معلوماتى .. لم يكن أبى أكثر حقارة
من أمك . أما أن يكون أحد الأخوين قاضيًا والآخر صعلوكًا فهذه
مشيئة الله .. ومشيئتهما معًا .. ونحن لم نجتمع الليلة لنعيد توزيع
التركة .. لم يكن أبوك شاعراً . لم يكن .. صحفيًا لم يكن شيئًا ..

لا يهمنى .. تكرهين اسم إنسانيات . لا لشيء سوى أن أباك هو الذى اختاره .. ولأنه سذاجة منفرة ككل حياته. ليتك تنسين . أنت لا تعرفين كيف تنسين . علاقته بأخيه يا إنسانيات موضوع يخصه هو . أعرف أن تصرفاته تنعكس عليكم جميعًا . ليتك تعفيننا .

- أنا أبيع جسدى لأنجس كلب أو انتزع من دماغى كل ما يذكرنى بهذا الرجل .. أبى .

إنسانيات على شفتيها ترتسم ابتسامة من الجحيم .. ابتسامة فيها من الهزيمة وفيها من اليأس ... وفيها من الحقد . وفيها من السخرية .. وفيها من التشفّى .. وفيها من القسوة ... وفيها من الانتقام ليتنى ليوناردو دافنشى أمنح البشرية هذه المرة ملامح الهزيمة واليأس والحقد والسخرية والتشفى والقسوة والانتقام فى شفتين مطبقتين معلقتين فى وجه امرأة . أبوها كتم منها علاقته بأخيه . فى المرات التى سافر أبوها إلى أخيه عاد جائعًا . على وجهه ابتسامة عابد بوذى ذليلة .. يعتذر عن أخيه ويلتمس له المعاذير. مرة وحيدة .. أتيحَ لها أن تقف على شفا هذه العلاقة .. لم تنس .. كانت صبيّة .. ستذكرها دائمًا .. عند عمها الذى هو أبى . سمعتهم يتحدثون عن أبيها .. إنه بلا اسم .. يشار إليه بالمجهول . يطلقون عليه اللواء . الباشمهندس . اقشعرت كل خلايا جسمها الغض البرىء آنذاك .. احتقرت أباها وعمها وكل ما يتصل بهما .. احتقرت القصر الذى يقيم

فـيـه عـمـهـا .. والحُـقَّين المظلمين . سكنهـمـا .. لن تنسى سكنهـمـا .. السرير ذا الأعمدة الحديد الرفيعة الصدئة .. خشباته التى تغطيها طبقة دم بق وبراغيث ومن تحتـه تفـوح رائحـة الجـاز والثـوم والشطة وعـفـونة غـريبـة تملأ أنفهـا لا تزال .. وفـوقـه مـرتبـة القش التى بلا لون .. وتحت لحاف أجرب ومـخدة مـشحـوة بالطوب يتـمـدد الرجل الذى لا تريد أن تسميه أو تعترف ببنوتها له .. خيالها تملؤه الطبقة الطينية الرقيقة التى تغطى المرتبة واللحاف والوسادة وقد نعـمت من احتكاك الأجساد بها وتكاد أن تلمح كجلد حذاء أسود باهت .. لم تكن بشرة الممدد على السرير صفراء .. كانت صفراء .. دلق عليها لون أسود كابٍ وغطى ذلك كله قشرة قشف . أبيض لا تذكر .. أسود لا تعرف .. بنى أسود قد يكون . ويصر أن يقرأ أعداد المقتطف وتأخذه نوبة السعال فيسعل ويسعل .. والنوبة تكاد أن تحمله إلى عالم أكثر عدلاً .. يشير إليها بيده .. يا إنسانيات يا بنتى .. الكوز .. وتغمض عينيها. وتناوله الكوز يسقط فيه مما تطرده شعيرات الرئة الصدئة المتقيحة ما يملأ كفًّا .. ويتهته .. حسن أخويا طيب طيب . حسن أخويا شاطر . قاضى نزيه . حسن أخويا . ولم يرحل الممدد إلا بعد أن نفرها من كل شىء . ثقفى نفسك يا إنسانيات يا بنتى.. حبى الناس .. يا بنتى الدنيا بخير .. أول ما فعلته بعد عودتها مع أمها من القرافة جمع الأوراق الحقيرة التى سطر فيها الرجل قصائده وحرقتها .. تمنت لو أن الأوراق ترتد صحيحة

مرة أخرى لتحرقها من جديد . سعادة فياضة تركبها وهى تحرق الأوراق أو ما كان يسميه قصائده .. إهداؤها كان إلى إنسانيات .. الأمل والضياء والمستقبل .. لم تشعر بومضة أسف على احتراق كلماته . ما تزال رغبتها صخرية أن تعود الأوراق وأن تحرقها .. كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلدواً غيرها. ترجِّح أنها سمعت ذلك أين ؟ لا تعرف .

الوعى يعود .. يقاوم أطنان الإنهاك والتخدير .. ما أرخص بيانات موظفى الإحصاء .. الجهنمية تريد أن تتحدث بلغة لا يفهمها بشر .. كل ما فى الحياة يثير تقززها واحتقارها وقرفها . الطريق الطويل الذى قطعته أمها .. من بائعة عاديات قديمة إلى أى شىء حتى أطشات الغسيل جلمدت أحاسيسها التى كانت صغيرة .. احتقرت حتى إصرار العجوز على أن تكمل ابنتها التعليم . وأكثر ما تحتقره فى هذا الإصرار أنه وفاء لرغبة الراحل .. إجمالاً هى تحتقر فى أمها وفاءها لذكرى الرجل الذى كان أباها - أبوك كان طيبًا يا إنسانيات .. أنا عرفته أكثر منك - عشرة أكثر من خمس وعشرين سنة .. لم يكذب مرة إلا ويبتسم معتذراً .. معلهش أنا كذبت عليكى يا أم إنسانيات .. أصل الحكاية .. لم يكن يطيق أن يرانى حزينة أو متعَبة وهو الذى قضى عمره مريضًا متعَبًا .. لم يكره إنسانًا أبداً حتى عمك الذى اغتصب ظلمًا ماله وحقوقه .. لم يكرهه . معلهش هيه الفلوس بتغنى . بس أنا كان فى نفسى أخليكم أحسن . معلهش .. كانت ترجُّه كلمة

الشرف والكرامة. الكرامة يا أم إنسانيات .. أثمن من كنوز الأرض - بس كان فى نفسى تعيشوا أحسن - لقمة نضيفة وأوضة فيها شمس . وهدمة تستر .. معلهش يا أم إنسانيات .. معلهش الكرامة أثمن . وإنسانيات بالتحديد تكره هذا من أبيها .. علاقتها بالناس فى الجامعة وخارجها تحددها صفة التماثل والتضاد من صورة الراحل .. لم تكن عيون الدكتور فهيم هى أول عيون تتحسس وتمسح جلدها .. وتطفو رغبة الفتاة جامحة أن تكشف للعيون الشبقة عن كل المستور . لم يجذبها إلى الدكتور فهيم هدف النجاح فى الكلية بمعاونته قدر انجذابها إليه ككتلة بذاءات ترتدى بدلة فاخرة وترطن . والبايب بين شفتيها « كلمات شكسبير » وعرفت « فهيم » وعرفها .. وفى العوامة كانت تصفعه على قفاه ، إزيك يا فهيم .

قبل ديدمونة يا ابن اللئيمة .. هل تعتقد حقًّا أنها كانت بريئة .. العجوز الذى أسميته داعراً .. كان اللقب النادر للنموذج الذى يملك قاع إحساساتها جميعًا . كان واحداً من الذين التقت بهم عند الدكتور فهيم .. جذبها إليه .. إن كل ما يحترمه الناس ويحافظون عليه مباح مهان عند الأهتم العنين طويل اللسان. على يديه فقدت كل ما يمكن أن تحتفظ به المرأة بعد أن يضيع شرفها . دربها طويل اللسان الخبير - ربطها - ما عادت تعرف للحياة مذاقًا بعيداً عن ذلاقة لسانه . وجاء أحمد ومعه كل الأسباب - طيبة فتاة - شاعر - وقد يغتفر له كل هذه

الكلمات السقمة التى كان ببراءة شديدة يرددها .. الشرف يا إنسانيات .. الكرامة .. لقمة نظيقة وأوضة مشمسة وهدمة تستر .. وقبل الشروط أن يقاسمه الآخر .. « عش الزوجية » كان يعتقد أن الطيبة تنتصر .. معلهش يا أم إنسانيات .. معلهش .

* * *

أخيراً ...

نحن لا نملك الأقدار .. الميلاد والحبو والخطو والتمنى والانحدار .. دعينى .. لنكُف عن الكلام .. لندع الصمت يتحدث - ويحاور - ويصل إلى قرار . أنت لست ملكى كما تقولين .. هذه كلمة ولهذا فهى كاذبة .. كل الكلمات كاذبة . الصمت وحده هو الصادق . أنت لست ملك نفسك . نحن ملك قبضة مجهولة الهوية .. ملك غول من غيلان الغابة التى لم تعد عذراء . أنا بلهفتى أعانق فيك ناب حية، أنا أحتضن بكل شوقى فيك .. نار الحريق . أنا لا أعانق .. ولا أحتضن .. إن ريح الغابة تدفعنى . لم سمُّواً سور الصين عظيماً .

- هل نتزوج يا إنسانيات ؟

أنا لا أريد جوابًا .. أنا لست إنسانًا مرفّهًا تعوّد أن ينال كل ما يطلبه منذ طفولته حسبما تهرفين .. أنا أحبك يا إنسانيات .. أنا لا أكاد أحتمل تجربة التمزق .. من جديد .. تقدم العمر . على أنه ما أبشع أن أحقق هنائى ! كيف يكون ؟ إن أى حل هو الأسوأ الذى لا يطاق .. دعينى لحظة . دعينى أغلق باب الحمام ورائى . ليس الموسى ما أريده ، شيئًا غيره، ملقاط الشعر .. الجدات آمنَّ بالجنى يركب الإنسان . أنا لا أومن بما تؤمن به الجدات ، لكن جنيًا يركب جسدى . إنسانيات هى الأخرى يركبها جنى .. أنا لا أحب هذا الجنى فى جسدى ، علىَّ أن أخرجه ..

هى وشأنها . هنا حلمة الثدي ألقمها بالملقاط. أضغط . أضغط . أضغط الألم لا يطاق ... الدم الذى يسيل ليس دمك يا وفيق . إن جسدك يتحمل أكثر .. يتحمل أكثر . اللعينة تدق الباب .. أضغط أكثر . كل دقة من دقاتها مضاعفة . إنك تتحمل أكثر ...

تدق الباب بقدمها . سباق بينكما . أكثر . أكثر . لا يهم الدوار .. تضرب الباب بكتفها .. السياق بينكما .. يدك تتخاذل .. هل تعود إلى الموسى .. ما يصلك بالجنية ؟ العضو يرد الجنى فى جسدك كله .. الباب يتهاوى وتسقط .. الدم يسيل من رأسها ، عليك أن تهرب .. من هذا القبو .. السرعة هى منجاتك .. حافى القدمين لا يهم .. الشارع نور .. هواء الشارع نقى بارد .. أسرع الخطو .. إلى أين ..

لا يهم ، فيم إذن كان كل ذلك؟ إلى أبى الهول .. يا متون الأهرام ...
الجواب : لا علاج من الجنى . سوى اليأس .. اليأس الكامل المستسلم
العريض، الجنى أو اليأس .. أو فلتعبدوا بناة الأهرام .

* * *

التــراب

١١ أكتوبر ١٩٦٨ - جريدة المساء

القمر دائرة مضيئة سريعة الخطو .. السحابات تتحرك على عجل .. موجة بيضاء خفيفة تسمح لدائرة القمر أن تطل من ورائها .. موجة كثيفة سوداء تزحف على الوجه الوقور تخنقه، ويغطس ملك شرم الشيخ/ غزة/ بورسعيد .. ستارة من اللون الداكن .. الستارة يخرقها عيون متشوفة تملأ المثلث الأرضى الرحيب .. على طول الجدار الشرقى من المثلث تعسكر جماعات .. زحفت من بعيد .. من عزب وكفور لا تحمل الخرائط اسمها .. الملازم فهيم تاوضروس يسامر الرقيب جعفرى عبدالرحيم .. الملازم فهيم لم يسافر فى الصعيد إلى أبعد من الجيزة .. الرقيب جعفرى يقهقه (بعلمنة) من لف ودار صعيد وجه بحرى، بحيرة (واللى قدامك دا يافندم .. ياما شاف) لكن الرقيب جعفرى أول مرة يعبر القناة .. ويتساءل فى براءة شيطانية :

- إحنا صح فى سينا وفلسطين ؟

... الملازم فهيم كان عليه أن ينهر الرقيب جعفرى لسؤاله الخارج على أصول الضبط والربط .. أسبوع مضى على اليوم الذى تحركت فيه

الكتيبة من ثكناتها على مشارف مصر الجديدة، والرقيب جعفرى بالحتم قد سمع قبل أن يتحرك من ثكناته أنه فى طريقه إلى سيناء فلسطين .. وارتفعت حرارة لزوم المؤاخذة فى دماغ الملازم فهيم ، إلا أنه بلع غيظه أو بالتحديد أعمل فكره ليصل إلى ما وراء السؤال الذى بدا له غير مفهوم .. الموقع وكل ما حوله حصنه من أن ينحدر إلى غضب أو استنكار خشن ؛ السؤال الذى انفلت من الجندى الذى يشاركه الدشمة .. الملازم فهيم أعمل فكره ولم يصل إلى تفسير فعزا الأمر إلى تخلف فى إدراك رفيقه .. أحس بأسًى .. الأيام الثلاثة التى قضاها مع جنوده فى نقطة المراقبة على العدو الإسرائيلى كانت قد أقنعته بقدرتهم على التقاط النكتة البعيدة .. وإطلاق ضحكة مجلجلة ، إنهم كرفاق سلاح موضع ثقة .. ولقد كانت معاينة الملازم لجنوده طوال الأيام الثلاثة واكتشافه لهم مصدر أمن داخلىٍّ له .. حتى كان يبدو لنفسه وللحظات طوال أنه ليس فى موقع خطر ... كان يعلِّمهم بعض الكلمات العبرية ولا يفوته أن .. يستشهد بقول النبى محمد عن السلامة التى يحققها من يتعلم لغة جديدة .

- وياسى جعفرى الله بالعبرى يعنى يهوه والأرض يعنى هآرتس.

ويلتفت جعفرى إلى الرقيب حميد أمام جهاز اللاسلكى .. ويخاطبه بين التفخيم والدعابة والسخرية من الوحدة المطبقة :

- اسمع يا حميد .. يا حضرة الصول .. والله هنعرف عبرى ..

كان الملازم فهيم يلتقط الغمزة اللينة فى مخاطبة جعفرى لحميد .. بحضرة الصول .. ويلاحظ بخياله أو بعينه الغضب يتشكل على وجه الرقيب حميد .. فالرقيب حميد رجل جاد .. وهو ليس صولا .. لذا فهو لا يسمح لجعفرى أو غيره من عباد الله أن يناديه بحضرة الصول .. والتفسير أن حميد إلى جانب أنه رجل جاد ولا يحب أن يرفعه أحد فوق درجته .. فدرجة الصول تمثل له أملاً قدمًا يسعى إليه بهدوء وإصرار منذ ترك المدرسة قبل أن يحصل على شهادة إتمام المدرسة الابتدائية ومنذ أنهى مدة التجنيد الإجبارى وتطوع فى الجيش وألحق بسلاح الإشارة .. وإلى جانب إجادته لقيادة العربات.. فقد أخذ فرقة اللاسلكى .. وفرقة كهرباء ولم يحول إلى المكتب مرة واحدة طوال الثلاثة عشر عامًا التى قضاها فى الجيش .. درجة الصول تمثل هدفًا محققًا ومن وجهة نظره لايحب أن يحرق متعة الاستمتاع الحقيقى بإطلاقه هوجاء من الرقيب الجعفرى الصعيدى الذى لا يتورع عن أن يمنح هذه الدرجة الرفيعة لمجند أُلحق بالجيش ولم يرتد بعد القطار الذى حمله من أعماق الصعيد إلى العاصمة .. على أن الملازم فهيم لا يدع الرقيب حميد يجوب بأفكاره كل هذه الدروب .. يخاطبه بلهجة جادة لا تقل درجة تشبعها بالسخرية عن لهجة الرقيب جعفرى ..

- معلهش يا رقيب حميد .. ولا تعكر دمك .. ويبتسم الرقيب حميد .. ابتسامة خجولاً .. فهو ليس بالجندى الأهوج - كجعفرى مثلاً - يتجاهل قيمة أن يحدثه حضرة الضابط بلا كلفة .

- لا يا فندم هو جعفرى حد يزعل منه ..

ويعود الملازم فهيم ينقل إلى جنوده أطرافًا من حكايات العلم العسكرى .. وما كاد المكان يأخذ سمتًا جاداً حتى ينطلق الرقيب جعفرى :

- حد الله يافندم .. ما فى أحسن من ضرب الفاس ..

ويندفع الملازم فهيم في محاضرة جادة عن أن الفأس وحدها لا تكفى.. وعن حاجة الفأس إلى ما يحميها .. ثم يفاجئه الرقيب جعفرى معلنًا أنه كان يقصد أن ضربة الفأس تفتح الدماغ أكثر مما يفعل النبوت ..

.. وتضج نقطة المراقبة بالضحك ..

.. ولكن السؤال وقد غطى السحاب قمر الليلة .. دفع بالأسى إلى قلب الملازم فهيم .. وبين السحاب كان يبحث عن القمر .. أكان توهمًا ذلك .. الذكاء والفطنة اللذان اكتشفهما فى رجاله خلال الأيام القليلة التى عاشها معهم داخل الدشمة .. أم أن البلهارسيا وفقر

التغذية قد طبعت هؤلاء الرجال بميسم الضعف فى الجسد والعقل .. ومع أن القمر كان قد خرج من تحت سحابة كثيفة وبدا مضيئًا فالظلمة الكابية كانت تجثم فى أعماق الملازم فهيم .. ولم يستطع تصور أنه يمكن أن يلاقى العدو فى صحبة مثل هؤلاء الرجال ..

- صحيح يا جعفرى إنت مش عارف احنا فين ..

- إزاى يافندم مش عارف احنا فين ..

.. كان جعفرى قد أثير ..

- إحنا فى سينا .. كمان بيسجولوا .. شبه جزيرة سيناء .. جدامنا فلسطين على طول . واحنا هنا علشان نحررها من الاحتلال الإسرائيلى ..

الصعيدى .. ابن دير تاسا من أعمال محافظة أسيوط .. ضاقت الدشمة بصدره المتهدج ..

- أكتر من كده - عدم المؤاخذة - بنأمِّن بلدنا .. أحسن تبجى زى فلسطين ..

.. واشتدن حيرة الملازم .. فالأفكار التى ألقى بها الرقيب جعفرى من خلف أكياس الرمل فى لحظة غضب .. هى بذاتها وبكلماتها - أو تصب فى كلمات أخرى - كل ما يمكن أن يقال .. وعجز الملازم عن

الوصول إلى تفسير للسؤال الذى أربكه .. وترك القمر يدخل تحت سحابة كثيفة .. ومرت فترة همود ..

.. انصرف الرجال داخل نقطة المراقبة .. كلٌّ إلى داخله .. وإلى الآلة التى أناطوها به .. وانطلق صوت جهاز الراديو الترانزستور الصغير .. وبدا أن كل شىء يسير كما ينبغى .. وأن رجال نقطة المراقبة الأمامية يمرون بفترة ترف لا تليق بمن يعكسرون على بعد خطوات من العدو .. وأعلن جهاز الراديو مع نشرة أخبار مليئة ومزدحمة أن العدو الإسرائيلى قد استكمل التعبئة الكاملة وأنه كان قد أعلن استكماله التعبئة الجزئية .. الراديو – هو الآخر – واحد ممن يعكسرون داخل الدشمة يجتر باطنه بصوت هامس .. ويردد شكوكه .. الملازم فهيم يشطح ويعود إلى سؤال الرقيب جعفرى يحاول أن يتفهمه .. هو مقتنع أن جعفرى جندى يعتمد عليه ولم يتصور أن يصدر منه مثل هذا السؤال .. إلا أن السؤال قد صدر .. والقضية بالنسبة إلى ملازم مهمة .. بل إنها أهم من اختيار الفتاة التى سيقترن بها .. ولعله لو كان قد فعل ورزق بطفلة صغيرة أمسكت بقطعة الشيكولاتة التى اشترتها بنفسها من تاجر البقالة وسألته (إيه دى يا بابا؟) وهى تعلم تمامًا أن ما بيدها قطعة شيكولاتة وأنها قد طلبتها بالاسم من البقال .. لوصل إلى أن الرقيب جعفرى قد وقع فى حضرة من حضرات الطفولة وأنه سأله

(إيه دى يا بابا ؟) وهو يعلم تمامًا أنه (فى شبه جزيرة سيناء) وأنه (قدام .. فلسطين ..).

لكن الملازم فهيم لم يرزق بطفلة بعد .. ولن يصل إلى تفسير يريحه للسؤال الذى هز ثقته لفترة طويلة فى الجندى الذى أحبه .. بل إن الرقيب جعفرى نفسه أخذ بالسؤال بعد أن ألقاه .. ولو ضيقت عليه الخناق لحزن وقال له غاضبًا مازحًا .. يا أخى سؤال شيطانى .. مش فيه خلة شيطانى تطلع على حرف غيط الشعير؟!

.. القمر باستدارته البيضاء البريئة - موجات السحب التى تتسابق فتحجب الوجه البرىء مرة فتغطى ظلمة داكنة سطح الأرض الواسعة ويتوسط إنسانا عينَى جعفرى فتحتَىْ عينيه فى محاولة قاسية لاختراق الظلمة .. ويبرز الوجه مرة فتنفك الأسارير وتمسح باصرتا جعفرى تضاريس الموقع إلى بعيد .. وتتعاقب السحابات .. مع وجه القمر ويحمل جعفرى إلى دير تاسا .

وأشرف الجدع على عينى البنت بدرية .. عينان واسعتان سوداوان فيهما جسارة قط برِّيوى ينحدر من الجبل الشرقى ويهاجم قرية دير تاسا فى الهزيع الأخير من ليل الصعيد .. وانتقل جعفرى إلى دارهم فى طرف القرية ..

.. على السكة الزراعية التى تربط دير تاسا بمركز البدارى ..

الباب مفتوح على زقاق داخل القرية .. والمنزل كله يعطى ظهره للسكة الزراعية لا يربطه بها سوى جدار أصم أخرس خال من الفتحات التى يسمُّونها فى البندر شبابيك واستلفتت الظاهر فكر جعفرى .. فى وجه بحرى يفتحون الأبواب على الطرق إذا مرت إلى جانب القرية .. على أنه تذكر عزبة مخالى فى المنوفية .. بناها مخالى لمزارعيه صفين .. ظهر أحدهما للترعة والآخر للسكة الزراعية .. والأبواب تفتح إلى الداخل .. القط البرِّيوى فيه من بدرية عيناها .. لكن فيه من المرحوم أبيه شنباته .. وانصبَّ العم عبد الرحيم داخل رأس جعفرى .. اللبدة الصوف الحمراء .. الخط الأزرق إلى جانب الخط الأبيض فى صديرية القطن .. العصا الغليظة فى يده نهارا .. فى الليل البندقية الميزر على كتفه .. أكواب الشاى الأسود .. السيجارة اللف .. أحاديثه التى لا تنتهى .. ودائمًا يتحدث العم عبد الرحيم عن أبيه .. جعفرى الجد .. جعفرى الحفيد شب يتصنت الحكايات التى يرويها العم عبد الرحيم عن جعفرى الجد .. يرويها لرجال قرية دير تاسا ولرجال العقيل البحرى .. ورجال بلدة البدارى أنفسهم .. وهو يرويها بشغف خاص للرجال الذين يسقطون من الجبل فى الليل المظلم .. المطاريد .. الأب لا يراقب نفسه وهو يحكى .. يحذف مرة .. يضيف مرات .. جعفرى الحفيد تسجل ذاكرته الحكاية بتفاصيلها .. تخدشها أحيانًا إضافة كبيرة أو مبالغة سها عنها العم عبد الرحيم فزادت ..

لكن القصة هي .. هي .. في أيام الحروب الأولانية الكبيرة .. كان الإنجليز يا رجالة بيحكموا البلد .. هكذا يبدأ غالبًا العم عبد الرحيم حديثه إلى ضيوفه .. رجال الليل .. دائمًا .. داخل القاعة الجوانية في الدار .. ويراقب الصغير إياه بعد الفرشة التي فرشها .. ويتوقع منه اللازمة التالية .. أن يعبر بسبابة يده اليسرى فيرفع شعيرات شنبه عن شفتيه .. ويواصل العم عبد الرحيم .. وقع الإنجليز مع الألمان .. وطلعت في دماغ الإنجليز يلموا أحسن رجالة في مصر تساعدهم في الحرب .. وتبدو الدهشة على وجوه السامعين .. ويعتقد جعفري الحفيد أن الدهشة لازمة تلازم الرجال المهيبة حين تتحدث إلى رجال مهيبة كذلك .. ويتوقع العم عبد الرحيم الدهشه على وجوه السامعين للمعرفه الواسعة التي يتحدث بها عن الحرب الأولانية الكبيرة .. يتوقف .. يضيف إجابة على الاستفسارات التي لم تتشكل بعد في كلمات .. هو .. سأل عن حكاية الحرب هذه وعن أطرافها لأن والد جعفري الذي سمى ابنه باسمه قد مات في هذه الحرب .. وترتفع الأسئلة عن كيف مات العم جعفري الجد .. هنا يتنحنح العم عبد الرحيم .. ويتم القصة ..

كان المصريون الذين جمعهم الإنجليز يحفرون طريقًا تمر منه سكة حديد داخل الجبل في جبهة سيناء وفلسطين .. الناس الذين رجعوا سمعهم العم عبد الرحيم يقسمون أن الحكاية حدثت أمام أعينهم ..

هنا يلزم التباطؤ من العم عبد الرحيم .. يطلب شايًا للضيوف .. يعزم بعلبة الدخان الفرط .. لا ينسى أن يبرم شاربه .. شارب القط البرِّيوى الذى ينحدر من الجبل فى الهزيع الأخير من ليل الصعيد ..

.. حدث أن ضابطًا إنجليزيًا رفع الكرباج فضرب به فلاحًا كان بيتشغل بجوار العم جعفرى .. جأر المريض صارخًا والضابط الإنجليزى نازل ضرب .. والتفت العم جعفرى إلى الضابط ..

– ارفع إيدك ..

– اسكت .. اسكت .. إنت ..

– بأقول لك .. ارفع إيدك ..

واندار الضابط .. ولف الكرباج ظهر جعفرى الجد .. وارتفعت الفأس .. وكالبصلة .. تفتت رأس الضابط .. ورغم أن جعفرى الجد سقط بطلقة مسدس فإن ابنه لم يكن يتوقف عند واقعة موته .. يقفز سريعًا إلى حديث المصريين عن الواقعة وعن الضابط الإنجليزى الذى تهشم رأسه كالبيضة وعن الخوف الذى ارتسم .. منذ ذلك اليوم .. فى عيون كل الضباط الإنجليز .. وعن حوادث العصيان التى قام بها الأنفار بعد ذلك .. احتجاجًا مرة على العمل ليل نهار ومرة على العمل بلا أكل .. ومرة على جلد الرجال الذين يعجزون عن العمل .. وغدا

جـعـفـرى الجـد حكاية .. كـحـكايات أبو زيد الهـلالى والزير سـالم .. وانتهت السلطة ولم تنته حكاية جعفرى الجد :

.. ولا يزال يذكر الرقيب جعفرى كيف كان جده يشيل مرة ويفعل مرة ثانية وأبوه يحكى :

– وشال لك الفأس يا ولد العم وضرب دماغ الظابط الانجليزى .. ودشدشها .. ورغم أن جعفرى كان قد حفظ القصة .. فقد كان يجد متعة كبيرة وهو يتخيل جده يلتفت إلى الضابط الإنجليزى فى شهامة لا بد (ارفع إيدك ..) ..

ويحاول الصغير أن يتخيل .. ويكبر خياله معه .. صورة جده وهو يرفع الفأس ويضرب بها .. ثم صورته وهو يسقط بعد أن أطلق الإنجليز عليه النار .. على أنه لم يحدث قبلا مثلما حدث فى ليلتنا .. أن حاول خيال الرقيب جعفرى أن يلحم جسد جده وقد صرعته طلقة مسدس مع جسد أبيه وقد سقط من أعلى النخلة أمام باب دارهم فى قرية دير تاسا .. لم يكن العم عبد الرحيم أقل شهامة أو رجولة من جعفرى الجد .. العم عبد الرحيم زرع العدس وشتل القصب وسرق المواشى ونهب المخازن وقتل عساكر الحكومة واغتصب نساء من كل قرية وكل نجع وخطف رجالاً فى حقول القصب وصدرت ضده الأحكام وعاش فى الجبل مع المطاريد .. وطاردته الحكومة .. لكنه مات إلى جانب جذع نخلة

أمام دارهم .. ولم يستطع جعفرى الحفيد أن يتحدث عن أبيه .. مثلما تحدث الأب عن الجد .. وكانت لمحة من المصادفة التامة أن قفز اسم سيناء وفلسطين إلى ذهن الرقيب جعفرى فانطلق السؤال المدفون إلى الملازم فهيم :

- إحنا صح يا فندم فى سينا وفلسطين؟ أيقن الرقيب جعفرى أنه حقًا على أرض سيناء وفلسطين.. أعمل فرامله حتى لا يغامر بسؤال آخر يقذفه شيطانه دون روية .. هذه أرض سيناء وفلسطين عليها مات جعفرى الجد .. أحس بأصابع قدميه داخل الشراب الصوف والحذاء الغليظ قد ارتخت . جسده كله يلامس تراب الرمل .. مد كفه وأمسك بقبضة رمل .. عربدت داخل جسده طاقة كبيرة .. تأمل المدفع الرابض أمامه .. تابعت عيناه شريط الرصاصات الممتد .. القمر فى السماء طفل يجرى فى حقل .. يدخل بين عيدان القصب فيختفى .. يخرج من بينها فيبدو للعيان .. انتقل جعفرى إلى رصد الرقيب حميد .. ابن حى الخليفة .. يجلس فى ثبات إلى جهاز اللاسلكى .. يفوق سيدنا سليمان فى رصد دبيب النمل .. ترى ما الذى يشغل مخك يا حضرة الصول ؟ لا تغضب يا ولد ستنال الرتبة وتتخطاها .. وأنت يا فهيم أفندى .. ما الذى أغضبك ..؟ هل أعلموك أن جعفرى بن عبد الرحيم معاه الشهادة حتى تغضب إذا سألك إحنا فين ؟ أنت رجل طيب صحيح يا فهيم

أفندى أنا علىَّ الحلال ما اعرف الألف من كوز الدرة إلا بقولة روحى لى ياهو ..

- بدى أجول لك يا افندم ..

- خير يا جعفرى .. عايز تقول إيه؟

- بدى إنك ما تزعل علشان سألتك .. صح احنا فى سينا وفلسطين .. علىَّ الحرام من دراعى ما ادرى ليش سألتك .

.. الملازم فهيم استرد ثقته فى الرجل الذى يشاركه مصيره .. وهز أعماقه أن الرقيب جعفرى ما زال يفكر فى الموضوع .. وأنه يصر أن يمحو كل انطباع سيئ ترتب على سؤاله .. وتقدم محاولاً توضيح سير السؤال .. وليصرف الطاقة الكبيرة التى اجتاحته بعد أن قبَّل حفنة من رمل سيناء .. وكان ظن الرقيب جعفرى بنفسه أنه سيستعيد قدرة أبيه على الحكاية .. سيذكر كل الإضافات لن ينسى أقل تفصيل مما كان ينساه أبوه .. ستبدو الحكاية واحدة من حكايات أبو زيد الهلالى سلامة ، تنقصها الرقابة وأكواب الشاى وكراسى المعسل ، وولع يا معلم حميدة .. والسجن للجدعان ..

- تعرف يا فندم؟

- أيوه يا جعفرى ..

- بدى أجول لك سر .. بس بالله ما تضحك عليّ ..

- قول يا جعفرى ..

- جدى المرحوم جعفرى .. أبو .. أبويه ..

- خير .

- مات فى سينا أيام السلطة فى الحرب الأولانية الكبيرة ..

- يا عم يا بختك .. إنت جار جدك .. لكن فين السر يا فالح؟

.. ارتبك جعفرى .. حقًا الحكاية ليس فيها سر .. لكن كيف إذن كان يحكيها المرحوم أبوه وكان يحرق سهرة بأكملها حتى تنتهى الحكاية؟ حفنة الرمل التى أمسك بها وقبّلها .. كيف ينقل خبر الواقعة الغامضة كالسؤال الملعون إلى الرجل الذى ينتظر أن يسمع كلامًا كبيراً يتفق مع كلمة السر .. وتجاسر جعفرى ..

- تعرف يا فندم .. عليّ الحرام أنا ..

توقف الكلمات على شفتى جعفرى .. هو .. ماذا ؟

وكاد أن يلمح ابتسامة تتلاعب على شفتى الملازم فهيم .. فأضاف بسرعة متلاحقة دون توقف ..

- أنا كـأنـي في دارنا .. هناك في دير تاسـا .. مـركـز البـدارى مـحـافـظة أسـيـوط .. جـار النخلة اللى خـانت ابوى .. وشـايف القط الجبلى .. وشنبه .. وشنب ابوى .. وعينيه السودا والبنت بدرية ..

.. ولو أن جعـفـرى فى دير تاسـا فـعـلا لشـد طاقـيـتـه عن رأسه وضربها فى الأرض وهو يزعق .. يا بووى .. الحرمة حرام ..

.. انطلق الملازم فهيم ضاحكًا فى إحساس غامر .. فهو فلاح يعفر مـاذا يعـنى أن تنفـك عـقـدة لسـان القـروى ويطلق الكلـمـات بلا خوف أو رهبة أو تحسس أو توجس أو حذر ..

.. الرقيب حميد التفت إلى زميله الرقيب جعفرى مشمأنطا وبسمة خفيفة ضنينة على شفتيه مع اتهام لم يعلن عنه أن الرقيب جعفرى قد مسّته نوبة جنون أعمته عن أنه يخاطب الملازم فهيم .

* * *

كان الضـوء قد غمر المثلث الرحيب .. بدت على مرمى طوية أرض فلسطين وكـان القـمر فـى الجهـة الـغـربيـة قـد غطاه الضـوء الجديد .. ومن الشـروق .. من وسط اللون الأحـمـر القـانى تبـاشـيـر شـمـس في ضـمـيـر الغيب لم تشرق بعد ..

وجهاز الراديو الصغير .. تطلق منه كلمات أغنية :

.. ما عاد م الثورة الشاملة مناص ..

وفى هدوء شديد وباحترام كامل التفت الرقيب حميد إلى رئيسه الملازم فهيم تاوضروس :

- إلا يافندم .. مناص يعنى إيه ؟

* * *

الشمس فى برج المحاق

٢٥ سبتمبر ١٩٧٠ - جريدة المساء

١ - رخص التراب

من الخطأ أن نقرر أن الأيام الثلاثة أضافت إليه الكثير .. هذه هى طبيعته، ليست المرة الأولى التى يمتنع فيها عن الوجبات الخفيفة التى اعتادها. فعلها عند وفاة أمه، وزوجته الثانية. فناجين القهوة وإحراق السجائر وممارسة البلاغة والتوحد، هى الشعارات التى يرفعها ويلتزم بها. هذا إن أمكن أن يلتزم بشىء معروف. هذه المرة أسقط شعار التوحد. لم يعتكف فى قمقه . فى عشه . فى قلعته، أعنى فى قصره. فى الصالة الكبيرة والراديو ألصق أذنه، وسط العائلة .. يحتسى، كمراسيم دينية، فناجين القهوة ويشعل سيجارة من عقب أخرى. تتفرق الزوجة والعيال يتحلقون حول مائدة أو طبلية أو يفترشون جسر الترعة، يغفون فى ساعات الليل المتأخرة . هو قابع يتمع ، يدير أزرار الراديو. يلتقط تسجيلاً من إذاعات أجنبية. هذه واحدة تهمه تمامًا، يعود يتابع، يلمح زوجته فى طريقها إلى دورة المياه، منفوشة الشعر حول عينيها سواد وانتفاخ، بها دوخة وآثار سهاد.

تخـاطبـه. لا تنتظـر رداً. لا تأمـل فى اسـتـجـابة. هى نفـسـهـا والعيـال . صبيان وبنات ورجال، لا يلقون بأجسادهم إلى السرير إلا بعد أن يغلبهم النوم. يحدث أن ينهدل دمـاغـهـا على صدرها ويصـدر عنهـا شخير خـفيف. يلتفت الأب إليـهـا مـتـضـايقًا. لا شيء يضـايقـه مـثل الحركة، يغـير أوامره. يهز كتفها ويـأمرها أن تحمل العيـال الصغار إلى حجرة النوم. بعينيه يسوق العـيـال الكبار فيندفعون صاغرين مصطحبين معـهم إلى حـجرة نومـهم راديو ترانزستـور. يغلبـهم النوم والراديـو بينهم يرطن أحـيـانًا، وتنبعث منه لفتـرات مـتـقطعـة خبطات مـوسيـقيـة، بلا مدلـول. فى الصباح تحمل إليـه الجرائد. التراكيب التى رسخت فى مـخه خلال قنوات الأذنين، تعيد شق طريقها منعكسة عن حدقتى العينين. ثم ينتـقل بوعيـه إلى جـهـاز الراديو الكبـيـر. خلسـة وكـأنهـا تأتى مـحظوراً تضع زوجته أو حرمته أو محظيتـه، شطيرة خبز على الصينية إلى جانب فنجـان القـهـوة، هى على يقـين أنه لن يمـد يده عـامداً ليلتـقـط لقـمـة أو لقـمتين قبل أن يرتشف شعيـرة الصباح، أعنى فنجـان القهـوة. إن كل مـا يأتيـه شعـائر. هى تعتـمد على حـالة الضـبـاب التى يعـيشـهـا أو التى يفترض أن تلم بأى كيان بشرى فى مثل حالتـه، والتى قد تتيح لسرحانه أن يمضع قليل الخبز قبل سيل القهوة. العيال يخرجون إلى شوارع حددها لهم بعـينيـه. يعودون من دروب يعـرفون - بالممـارسـة - أنهـا على هواه. فى أدب واحتشام يتخذون مجالسهم إلى جوار الأب. يودون أن ينطقوا

كلمة واحدة، فلا يقدرون يستغرقهم التفكير فى انتقاء الكلمات التى يفضلها، التفكير فى طريقة النطق التى تليق فى حضرة أب مهيب. خرجوا كما أمرهم، ورجعوا وفقًا لإرادته، عليهم أن يقولوا جديداً، لكن الأب لم يعلمهم الجديد الذى عليهم أن يفاجئوه به. استغرقهم البحث عن فكرة مقبولة، تصاغ فى كلمات مقبولة. استغرقهم الاستغراق حتى نسوا الشيء الذى أجهدوا أنفسهم من أجله. انتهى بهم الأمر إلى الصمت: صمت المقابر .. صمت المعابد العريقة .. صمت أخواتهم البنات . صمت أمهم أو خادمتهم أو مرضعتهم أو مربيتهم .. صمت الأب المجيد نفسه . الراديو وحده هو الحى . هو الناطق. تنتهى كلمات الراديو . تبدأ خبطات الموسيقى الصماء. الآذان مشدودة ، الأب يحدث أن ينتبه إلى حضور العيال . تعوم عيناه على وجوههم. يتفحصهم. يقرأ أفكارهم. هل جد عليه غريب . فكرته الثابتة أن العيال ملاعين ولا يؤمن لهم .. يود أن ينطق بكلمة، لكن الآباء العظام لايخلق بهم أن يتحدثوا حديث البشر البسطاء الصادقين فى الصباح يبكرون فى الاستيقاظ .. يلقون عليه التحية .. ثم لا كلمة. عرضوا عليه مشاركتهم لقمة خفيفة .. لم يستقبلوا اعتذاراً منطوقًا .. الرب يحل أو يتجلى فى مخلوقاته، وعلى البشر الفانين أن يقضوا حياتهم المطوطة فى محاولة حل الألغاز .. هز الأب رأسه . عرف العيال أنه يرفض أن يفىء عليهم بركة مشاركتهم وجبة الصباح . لم يخافوا أن

يضبطهم متلبسين وقد عرفوا شيئًا .. فالمعرفة التى علمها لهم مباحة. ود الأب أن يحدث العيال . فكر أن يسألهم . استغرقه التفكير بحثًا عن موضوع يسألهم عنه .. بعد فترة .. وهو وراء كل شيء من البشر . كان مستغرقًا فى التفكير بعمق شديد. لكنه لم يكتشف أنه نسى الموضوع الذى كان يفكر فيه . بقى فيه الشرود وتشكيلة قسمات وجه جادةٌ مهيبة، مستغرقًا فى لا شيء.. الأم تمر بعينيها . وجه بناتها .. الشعر المعقوص تململاً متفجراً تلمحه مختبئا وراء وجوه الأولاد . لكنها تحس بداخلها ، وقد أصبح الداخل وحده ساحة حركتها الطليقة .. إن البنات لن يتفجرن ضاحكات .. قد تنفجر البنات لكن بلا ضحك .. هى نفسها .. هى نفسها ماذا ؟ سبحان الله . الرب يحمل عنا خطايا السهو .. ثم يحدث أن تمصمص بشفتيها. بشدة يندار الأب مَغيظا حانقًا .. العيال .. البنات .. هول كأنها خرقت قاعدة نص على تقديسها الدستور . دستور إبراهيم وموسى .. تدارى نفسها عن الفضيحة . أخرجت ثديها من الحلوق .. دست الحلمة بين شفتى الصغير .. فالأم العربية لا تكف عن قذف الصغار، الذين يظلون لحكمة تعلمها ، صغارا يحتفظون بفطرية الطفولة بداخل بدلهم وعباءاتهم وأروابهم .. للحظة تسلل إلى داخلها أن الصغير لا يرضع .. يرضع أو لا يرضع إنه فى حماية الأب .. تمصمص بشفتيها .. تفيق ، لتتهم نفسها . من حسنات زوجها العظيم، أنه علمهم جميعا كيف يتهمون

أنفسهم .. أن الجريمة .. جريمة حركة الشفتين أبشع من أن يتحملها الإنسان .. وفى محاولة للاعتراف بالذنب - فهذا الذنب بالذات لم يحمله عنا المخلص - تسحب الحلمة من فم الرضيع . لما كان الرضيع لم يكن يرضع - فالذى يرضعه حقيقة هو الأب - فلم يحسّ بسحب الحلمة وإن كان قد رفس الأم برجله .. لم يشعر أحد برفسة الطفل .. فتحت هذا السقف المبارك أهله، لا يجب أن يشعر بالرفس إلا من رفس وحده. لأجل ذلك فالأم وحدها أحست الرفسة. بروح إيزيسية أيقنت أن الرفسة عقوبة .. لا يهم أن تستحضر الخطيئة التى اقترفتها .. فحياة البشر - مهما مددتهم داخل مومياوات - لا تخلو من خطايا .. إلا أنه لما كان الرضيع رفسته لا تضير فقد رجحت بينها وبين نفسها، فى ساحتها الداخلية الرحيبة .. أن الرفسة قدرية .. البنات .. بناتها لا يعرفن، لم بالتحديد .. لم هذا . لا اختلاف بينهن .. حاملة الدرجة العلمية وتلك التى تتدرب تحت هذا السقف على أن تنطق كلمة أبانا .. يدخلن المطبخ .. فنجان القهوة يصنعنه مجتمعات صامتات. تحمله واحدة والأخريات - طابور جنائزى - وراءها .. صامتات بهدوء وبخشوع وبفزع أيضًا، إلى جوار الأب يوضع فنجان القهوة .. يعدن بنفس الطابور إلى أماكنهن .. يتابعن جهاز الراديو .. الرغبة تملأهن، ليست الرغبة الجنسية فهذه لم يرد نص يحرمها .. كلمة .. كلمة واحدة ماذا حدث يا بنات ونحن داخل المطبخ؟ تلتقى عيونهن .. كل واحدة بالعين

تلقى على أختها عبء الكلمة .. العبء أو الواجب أو المسئولية أو العهد أو الاستشهاد، ينتقل بالعين من هذه إلى أختها، ومن أختها إلى أختها، ويدور .. تنسى العيون أنها كانت تتلاقى بهدف استلام العبء وتسليمه ... العين تشى أن عليك أنت أن تتحدثى .. يلتفت الوجه .. العين تطلب من الأخرى أن تتحدث .. تتسلم الأخرى الرسالة، ثم تلتف تتخلص منها .. ثم تلتقى عشرات العيون الصامتة .. بلا عبء وبلا رسالة تلتقى العيون وتفترق .. وتلتقى وتفترق .. ثم تلتقى فقط .. ثم تفترق دون أن تلتقى .. فسواه كل من عليها فان .. ثم تدور، تسقط على الأشياء .. مع عيون العيال .. مع عينى الأم .. حذاء الأب الرحيم، أحذية العيال اللامعة، مع تراب الخماسين ووحل الشتاء .. شبشب الأم .. صنادل العيال .. الخطوط على السجادة خطوط مستقيمة واضحة .. خطوط متصالبة .. خطوط منحنية .. متلاقية .. دوائر مربعات .

أشكال غريبة لا يجمعها اصطلاح هندسى .. من العيون تعينان تقفان على المصباح الكهربائى، تراه ولا تلاحظ - فالملاحظة إثم كبير - أنه مضاء .. المصابيح تضاء فى الليل لمطاردة الظلام .. لكن ليس من اللازم أن تطفأ فى النهار .. الدماغ الذى ركبت فيه العينان لم يعمل .. أو هو لم يأخذ الإذن بأن يعمل .. لم يتساءل . أو هو لم يأخذ الإذن أن يتساءل .. لا لزوم لأى شىء آخر ما دام تحت الجلد طبقة سميكة من

الشحم كالتى تصنع أعجاز الغوازى . ثم أن يتفرغ دماغ ليحدد، ما إذا كان الوقت ليلاً أم نهاراً لا يعنى شيئًا .. أو قد يعنى شيئًا .. ما الفرق ؟ نسى الدماغ المصباح المضاء فى السقف. فهذا الدماغ ليس به من صفات الأدمغة سوى أنه تعلم جيدا فضيلة النسيان .. بحثت عيناه عن الراديو الترانزستور .. مُلقًى على الجرائد كل شىء على ما يرام كل شىء فى موقعه الصحيح فى موقعه .. الأم فى موقعها . العيال بلحاهم .. البنات .. السجادة نتيجة الحائط .. ساعة الحائط .. فنجان القهوة .. أعقاب السجائر .. كلمات الراديو .. فاصلاته الموسيقية .. العيون الصامتة المتحولة .. العيون الصامتة .. المنكمشة .. العيون الصامتة المغلقة .. الأدمغة التى تعمل ولا تعمل وتعمل .. الصور التى تسرح داخل الأدمغة .. تنتقل بالصمت من دماغ إلى دماغ .. الخطوات الموءودة .. الكلمات التى لم يقدر لها أبدا أن تتجسد فى نطق أو رسم وانحدرت مع النيل عند دمياط ورشيد يتغذى عليها سمك السردين .. حتى ينجب الرجل لا أقل من خمسة إلى ستة مليون حيوان منوى فى السنتيمتر المكعب الواحد . فهل من مبارز..

جملة اخترقت دماغًا من الأدمغة المتحلقة حول الأحذية والشباشب والصنادل .. النسيان سيد الأدلة .. ثم الصمت .. الصمت وجود مكثف تنغرز فيه كل الأشياء والموجودات .. الأب وذووه والمتعلقات والأفكار والنسيان .. كل ما يشغل حيزاً فى مكان أو زمان، مغروز

في الصمت .. الرؤية نفسها .. رؤية العيون التى عميَتْ.. الخفق الواهن .. الدهشة التى ماتت .. الخوف السرطانى .. الفزع .. الأوامر .. النواهى .. الخنق .. مغروزة فى الصمت .. سبحان الذى بيده ملكوت كل شيء .. كلمات الراديو ذاتها .. بين كل كلمة والتالية لها حيز من الصمت، مهما تتآلف الكلمات وتتتابع .. بل مهما ارتفعت إلي غير رفعه وعلَتْ كبصر الخنزير .. الولد الصغير لا يعرف أنه غير فاهم .. الراديو فى مكانه .. يرطن كعهده دائمًا .. الولد يجلس إلى جوار الأب .. فى أذنى الأب صراخ .. صراخ من قديم يملأ أذنيه ولا يسمعه .. صراخ ولهاث وأصوات سياط ودم ينبثق وحيوات تراق .. عملية الفصاد حتى يستقيم الطريق .. فصاد أم نزيف لم يسأل الأب الطيب .. يد الأب ترتكز على كتف الصغير .. الصغير ينسحب من تحت وطأة اليد التى خالها الصغير، واهمًا .. باهظة الثقل . يقف إلى جوار الأم .. الأم تشير لواحدة من بناتها . جرعة ماء للولد .. تنصب البنت قامتها وتحمله قدماها إلى داخل المطبخ .. الراديو الترانزستور يقتعد رفًّا من أرفف النملية وتنثال منه الكلمات .

هى أو واحد أو واحدة من إخوتها أو أخواتها نسينه يلقى بكلماته للأطباق والحلل والمواعين والبوتاجاز والملاعق والشوك .. تلك الأشياء الراقدة فى صمت أبدى لا تتحرك وحدها من مكانها .. نسيت البنت سبب دخولها المطبخ ورجحت بجرأة أن المطلوب فنجان قهوة للأب ..

وهل من المقبول أن يُطلب شيء خلاف فناجين القهوة .. ووضعت البراد على البوتاجاز .. صنعت زنجبيلاً ورصت الأكواب .. نسيت أيضا .. الراديو الصغير يزحم المطبخ بصوته .. يذيع للأشياء داخل النملية وخارجها .. صوته يصل إلى حوض الغسيل .. بقايا طعام قديم .. دهون صفراء متجمدة .. صفيحة الزبالة طافحة لم تقطع مسيرتها الصباحية إلى خارج الشقة لتعود فارغة . أيام ثلاثة مضت وهي جالسة في مكانها لا تريم .. قشر بصل وورق نتيجة وبقايا خبز ورائحة نفاذة .. العطن ينفث فساد الأشياء .. نتيجة الحائط متوقفة .. الراديو يصر على مواصلة كلمات .. طاقم علب الشاي والبن والسكر والملح مرصوصة . على رف منفصل بعيداً عن النملية .. يحوم حولها صوت الراديو .. شباك المطبخ مغلق .. هواء المطبخ فاسد خانق .. آثار جاز واحتراق ذبالة وعطن طعام ولا من نسمة تخترق سور مصر العتيقة . كلمات الراديو تزيد المطبخ زحامًا .. بنت من البنات ، أم لعلها الأم، أو لعله واحد من العيال .. الأكيد أنه ليس الأب ، كائن خلافه فتح الصنبور ولم يغلقه . سرسوب ماء صغير ملأ الأطباق والحلل وسقط الماء إلى قاع الحوض مغلقًا ببقايا الزبالة .. الماء فاض على أرضية المطبخ .. الماء يشق طريقه .. الولد الصغير لا يستقر على حال .. من جانب أمه إلى جانب إخوته .. أكواب الشاي الفارغة مرصوصة على منضدة وسط المكان .. حمل الصغير كوبًا فارغًا .. يتجول في الصالة . فزع الأب

والأولاد والبنات .. دوى صوت هائل كتهدم الدار .. انذعر الحضور خلا الأم المهمومة بإرضاع الطفل .. هب الأب سامقًا واقفا .. الأولاد فى مهابة أبيهم وعظمته .. أنيقون طيبون نظيفون تتفزز وجوههم بالصحة والعافية .. البنات لولا احتباس الصوت الذى ألمَّ بهن لانطلقت أصواتهن تشق الصمت ثم تركزت العيون جميعها تبحث عن مصدر الانفجار المدوِّى .. التقت عند الولد الصغير .. يقف صامتًا وأمام قدميه حطام كوب الشاى .. التقت العيون الكثيرة فى خجل لا يفيد وندم أو نعاس فى أوانه أو بعد أوانه .. ما قيمة أى شىء فى هذا البيت العتيق ؟ أشعل الأب سيجارة .. مصمصت الأم .. قامت بنت من البنات تكنس هشيم الكوب المكسور .. العيال أصلحوا من ربطات العنق .. ونفض نقاط الشراب التى انتشرت على السراويل النظيفة .. تطلع ابن فصيح جرىء إلى ساعته فى حركة سريعة ليس المقصود منها تحديد الوقت، ذلك هو الشرط كانت الساعة لا تعمل .. مع أن الابن لا يستطيع أن يلاحظ أن الساعة متوقفة ، إلا أن يده بدأت تدير المسمار .. سيل المياه سحب عليهم .. تسلل تحت السجاد خطان رفيعان كفروع النيل عند ممفيس أغرقا حجرة النوم .. هبت العائلة .. ترفع السجادة تحاول أن تغلق الصنبور البعض يجفف المياه .. الأب فى سره يلعن الأم والعيال والبنات .. كلمات الراديو ضاعت فى الجلبة

المزعجة .. هذا يعنى أن وقتا قد يطول قبل أن يحتسى الأب فناجين القهوة . كلمات الراديو فى الهواء .. الآذان كفت عن وظيفة الالتقاط .. فما قيمة أن يكون لأى شىء وظيفة ..؟

* * *

٢ - قميص الكتاف

الأب فى يده اللمبة السهارى الصغيرة .. يوارب بابًا خشبيًا خشنًا .. يتسلل داخل حجرة مطلية جدرانها بطمى النيل .. إلى جوار سرير سفرى صغير يقف .. يتأمل فراغ الحجرة .. المكتب الذى صحب الابن سنى الدراسة .. كل شىء هادىء .. فراغ يمتد داخل ركبتيه هو .. قلبه يركض لدرجة التوقف .. قفص الصدر .. غطاء براد الشاى فوق نار متأججة .. يعلو ويهبط .. عيناه، ليس عيناه وحدهما .. كينونته كلها تحط على الابن النائم .. فوق شماعة .. البدلة معلقة، بدلة الجندية .. البيريه العسكرى مشبوك على مسمار مدقوق فى الحائط الطينى .. من تحت السرير تبرز فردتا الحذاء الميرى الكبيرتان .. فى داخل الأب حقيقة ما من سبيل إلى التنحى عنها وإخفائها .. الابن فى الحرب .. فى ..

الشاعر يتأمل الغروب الحتمى بلا قدرة على إمساك الشمس الذاهبة .. هذا هو الابن .. اللحاف يغطيه حتى الصدر شعر رأسه قصير .. أسود جميل .. ليس جميلا .. شيء يحيط بقلب الأب .. لا ينبض القلب دونه .. الأنف الطويل .. أمسك بكف الابن .. الأصابع .. الوجه .. هذا ليس وجه ابنه .. وجه الدينا بأكملها .. وجه الحياة ذاتها .. الوجه راقد فى سبات كأنه الموت .. لم يسمح الأب لكلمة الموت أن ترتسم داخل مخه .

قديمًا أنكر آباؤه أن «أوناس» قد مات .. إنه سافر لكى يعيش .. أنكروا أن الملك أوناس قد مات .. إنك تعيش .. ارفع نفسك أيها الملك السامى بين النجوم التى لا تفنى .. إنك لن تفنى أبدا .. فالملك أوناس لا يموت .. من قال إنه مات ؟ إنه لن يموت هذا الملك أوناس المبجل، يعيش أبداً .. لقد صعد إلى السماء على أشعة الشمس .. أيها الابن الصغير الملك .. الأب كأجداده يزيح كلمة الموت بعيداً عن الدار .. كل شىء إلاَّ موت الابن، ماذا يعنى كل شىء .. أن يموت الأب .. أن تبور الزراعة .. أن تحرق الدار .. روح الشاعر الحزين تعاود الأب .. فى رأسه ترتسم صحراء واسعة .. تلال الرماح .. الرمال العطشى .. الرمال التى تمتص سيولة ليلة مطيرة وتقول هل من مزيد .. ما أضعفه الإنسان ! .. كوز دم .. كوزان .. الإنسان كوزان من الدم .. ثم نار الشمس التى تحرق كل شىء .. ولا شىء يبقى .. جرعة ماء ..

الجريح يطلب جرعة ماء الرمال الصماء لا تستجيب .. آه يا صغيرى .. فـذاك نبض روح أبيك .. الرمـال التى تمتص كل شىء .. تمتص دم الإنسان .. آه ..

الصغير ينادى أمه .. الآهة يطلقها خافتة .. فذاك كل شىء ياصغيرى .. كل شىء .. لكنك بعيد .. عن أبيك .. لن أكون إلى جوارك .. الأرجوحة المجنونة تلف داخل الرأس الوقور .. تدور .. تلف .. الساحة رحيبة .. ساحة الحرب .. جبانة قبورها بلا جدران وبلا غطاء .. هذا ما يسمونه ميدان القتال .. فردة حذاء داخلها قدم بشرية، إلى جانب خوذة بداخلها رأس إنسان تتأجج ذراع نابتة أو مدفوسة فى الرمل .. يعلو القلب ويهبط .. النار تتأجج لكن الابن - ابنه وحده - لا بد أن يكون سليمًا معافًى .. إن الخيال مهما جن .. الأرجوحة مهما دارت داخل الرأس العجوز .. ابنه وحده ما خدشه سن إبرة .. ما عفرته حفنة تراب .. إله صغير لا يطوله شر .. ثم تفلت الصورة .. صورة الابن سليمًا معافًى .. إنه لا يملك أن يمسك بالصورة اللعينة التى تتشكل داخل رأسه .. لم لا ينصاع خيال الإنسان لإرادته .. الابن ليس إلهًا .. إنه ابن .. واحد من الذين فى الميدان .. فى قدمه حذاء غليظ .. على رأسه خوذة .. له ذراعان وساقان وبطن داخله أحشاء .. تجرى فى عروقه دماء .. ما أضعف الإنسان ! .. كوز .. كوزان من دم .. ثم لا شىء .. كيف، ثم لا شىء .. لا يمكن لهذا أن يكون .

الأب العجوز يحيى تقاليد اندثرت على صفحات أوراق البردى.. آباؤه لم يسمُّوا الموت باسمه .. إلى هذا الحد بلغ حبهم للحياة .

لا يمكن لهذا أن يكون .. الصلوات الطيبات لك يا وزير يا رب الأبدية .. يا خالدا فى الآبدين بين النجوم التى لا تفنى .. أنحنَى الأب فى خشوع .. أمسك بكف الابن .. تململ الصغير .. فى اللحظة التى انحنى فيها الأب ليقبِّل كف الصغير .. كان الولد قد أعطى وجهه للحائط .. ساحبًا ، دون قصد كفه قبل أن تطولها شفتا العجوز .. وانهارت السنون .. الطويلة من الصبر والجلَدِ والرضا والتحمل والمعاناة.. الأيام السحيقة الشاحبة التى جراها وراء حمير الوسية تحمل السباخ إلى أراضى الأبعاديات الواسعة .. الصحبة الطويلة ليد الفأس الخشنة يشق بمشطها أرض الأبعاديات فتتحول بين يديه إلى سنابل قمح وشعير وكيزان أذرة ثم لوزات قطن .. لسعة العصا الطويلة على ظهره لا تزال ساخنة وموال الصبر لا ينتهى .. شتائم ناظر الوسية التى تحيل الحراث العريق بهيمة ثالثة مع بَهيمَتَى المحراث .

الأب الكبير والأم تُهتك ذكراهما على لسان أفندى لا يساوى ريالاً مجيديًا ، عن القرية غريب .. فى داخل العجوز كان صفاء يبعث على الضيق .. نعمة العيش .. نعمة النعم .. لو يطول هذا الأفندىَّ بعيداً عن دوار الوسية وعن أرضها لأسمعه رداً واحداً .. لم يكن الأب

الكبير بهيمة .. لم تكن الأم كما وصفها بالسوء ، لقد عاشا طوال حياتهما المديدة .. ورعَين .. تقيَّين .. لم تدخل حبة أذرة واحدة حرامًا إلى جوفهما ، ولو ناما ليالى بطولها ، لا تملأ معدتهما سوى جرعات ماء النيل بطميه الخصب الحنون .. على أن لقمة العيش لا تأتى بالسهل .. عذر هذا الأفندى أنه لم يعرف الأبوين .. على الأب الصغير إذن أن يتحمل .. خلق الإنسان ليتحمل .. الذنوب عديدة .. لا أول لها ولا آخر .. النظرات إلى حلال الغير .. عيدان البصل التى لا بد اقتلعها فى شبابه من أرض الوسيَّة .. لَمَ لَمَ يرسله أبوه إلى كتاب الشيخ عكاشة؟ كان أبوه رجلاً طيبًا .. لِمَ يكن لديه ما يفيض ليدفع عشرينية فضة للشيخ عكاشة .. لو أنه علمه وحفظ القرآن الكريم لكان الآن ممسكًا بالقلم الكوبْيَا ويكتب أسماء الأنفار فى غيط الوسية .. ولكان من حقه أن يسير إلى جوار الناظر .. لو أنه يفك الخط .. على أن التحمل يهون معه الصعب .. سنين .. سنين .

وجاء الابن ليكسر القاعدة .. الأب لا يستطيع أن يرجع بالقاعدة إلى الوراء .. إلى حيث لا يعرف .. منذ أزمان سحيقة .. من قبل أن يطارد أجداده النبى موسى وعشيرته .. لأول مرة تكسر القاعدة .. يكسرها الابن النائم .. يفك الخط .. لينس الابن فك الخط .. لتذهب الأوراق والقلم إلى النار .. فقط يبقى إلى جواره .. كيف يبقيه إلى جواره فى الأمان .. يعزق .. يحرث يزرع ؟.. ما من سبيل .. قبل أن

يستيقظ الابن .. قبل أن يضبط أباه .. على العجوز أن ينسحب بعيدا .. إنه رغم كل شيء، لا يجب أن يراه ابنه وهو في حالته هذه .. لا يجب أن يرى دموع العجوز تناسب بين شعيرات اللحية الكثة البيضاء ...

- ٢ -

في الصباح .. يخرج سرب الإوز الأبيض .. يحاول أن يطير فلا يحمله جناحاه .. يلقى بنفسه في الترعة المجاورة .. الساقية تدور وتلقي بمائها إلى قنوات الحقل .. الذى بنيت الدار على حدوده .. على المصطبة الممتدة .. أب يجلس .. تلعب سبابته وإبهامه بحبات مسبحة طويلة .. يحتسى فنجان قهوة .. إلى جواره على المصطبة راديو ترانزستور .. لا ينسى الأب جلساته إلى جوار الجهاز اللعين .. أيامًا ثلاثة بطولها . ليل نهار .. ما دخل جوفه غير جرعات القهوة . خرج الابن من داخل الدار .. خلع البيريه .. انحنى على يد الأب يقبلها .. أمسك الأب .. بعد أن وضع فنجان القهوة جانبًا برأس الابن .. أخذه بين راحتيه .. طبع على جبينه قبلة عميقة .. ود أن لا تنتهى أبد الدهر، تابعه بعينيه ، وقلبه وبجسده كله .. وهو يبتعد .. يبتعد .. إلى جبهة القتال .

٣ - وجهاً لوجه

رياح الأقيانوس تهب دائخة .. تمسح شوارع الإسفلت .. ترجّ الزجاج المتخلخل فى النوافذ والأبواب ثم تضيع ذليلة فى حارات خلفية.. أب يسند ظهره إلى حائط سرير .. بطاطين صوف حريرية .. ألحفة .. دولاب هائل .. أثاث يزحم فراغ الحجرة .. سجادة تغطى أرضها الخشبية الناعمة اللامعة نقوش السجادة خطوط مستقيمة .. متصالبة .. دوائر مربعات نجفة كبيرة تتدلى من السقف مصباح كهربائى .. فوق الكومودينو .. كتب .. مجلات .. جرائد .. فى الطرف الآخر للسرير .. أمّ .. الأب يحاول أن يستثيرها .. أن يستنطقها كلامًا مترابطًا مركبًا .. ترد أنها تعرف .. فى قراره أنها لا تعرف بالدرجة الكافية مدى الخطورة التى تتهددها هى نفسها .. تبرق فى ذهنه فكرة لتقريب الموقف .. هو يعرف أن كل تبسيط ينطوى على حذف .. لكن ما حيلته معها ؟ تعرفين أن السرطان نمو تضخمى تحطيمى فى بعض الخلايا لا يقف عند حد .

همّ أن يشير إلى جسمها المنسل تحت البطاطين .. هم أن يطبق فكرة السرطان على عضو من أعضاء جسدها .. رد نفسه .. انفلتت منه كلمات بلهاء .. حسبما بدت له ولها .. لا سلام مع السرطان .. سحبت جسدها وكأنها ترد بطريقة ما على أفكاره التى لم ينطقها .. يا رجل اتق الله .. ادع للابن بالسلامة .. دون قصد منها .. دفعت

الأب على الحبل المشدود .. حبل فى رهافة حد السكين .. ماذا يعنى أن يدعو لابنه بالسلامة؟ الأب .. لمعت فى ذاكرته واقعة محددة .. اللحظة التى هم فيها أن يقبِّل كف ابنه ، اندار الولد بوجهه إلى الحائط ساحبا يده بعيداً عن شفتَىْ أبيه .. العرق من جسد الأب تفصد .. صوت أمواج مهتاجة .. تثارات ريح تنفذ إليه داخل حصنه .. نوافذه مُحكَمة .. أبوابه موصدة .. لكن الريح تنفذ .. هل يكره زوجته .. إنها أكيد لم تقصد .. لم تقصد إطلاقًا ..

لكن الكلمات التى كان يطلقها محلقة متماسكة فى الفكرة تحت قبة الجامعة ، حطَّت على الأرض هذه المرة .. الساعة فى يد الابن النائم .. الخوذة داخلها رأس فى الميدان .. ترى ماذا يفعل الابن؟ .. الرمال لا تشبع من مطر يسحّ ليلة بطولها .. دم الإنسان كوزان أو ثلاثة.. الابن ينحنى على يد الأب يقبِّلها .. انفلتت من الأب كلمة أخرى بلهاء .. منطوقة هذه المرة .. سمعت الأم .. لا سلام مع الأعداء .. انذعرت الأم .. التفتت إلى الأب مستنكرة تطلب منه أن يدعو للابن على خط النار بالسلامة .. يرد الأب أن لا سلام .. ماذا حدث لهذا الرجل؟ احتار الأب أمام منطق الأم .. همَّ أن يشرح .. دولة إسرائيل .. توقف .. لم يجد رغبة أن يسترسل، إنه يخشى أن تهتز تركيبة دماغه.. فنطق بصوت مسموع .. العنف هو العلاج .

الأم تحدق إليه مستريبة .. يا رجل ادع للابن بالسلامة .. نفض الأغطية .. قام .. على كرسي بجوار السرير جلس .. عاودت ذكريات أيامه الثلاثة، وصوت الراديو .. فناجين القهوة .. تزاحم العائلة المشلولة حوله ..

أمام منطقها أحس بحاجته إلى أن يثبت إيمانه .. هذه قضيته هو مع نفسه لا مع هذه الحرمة .. مع التشابك القاتل فى تهويماته التى عاش يرددها أمام تلاميذه .. اصطدمت هذه المرة بجسد حي، لو شكت إبرة طرف إصبع من أصابعه ينزف دم قلبه هو .. طالما ربط أمام تلاميذه ، بين السلام وبين غموس المش، وعصا خولي الوسية التى لسعت ظهره فى تاريخ ليس بالبعيد .

انتهى إلى قرار أن يشغلها عن الموضوع الكئيب .. أن يعطى نفسه هو مهلة .. اسمعى سأقرأ لك .. كانت ما تزال تنتظره علامة الاستفهام تملأ دماغها .. أب لا يريد أن يدعو لابنه بالسلامة .. ومتى ؟.. وابنه فى نفس اللحظة يحارب .. ابن صاحب الدعوة إلى العنف .. رقيق هادئ مهذب مؤدب هيّاب لم يذبح فرخة .. ما أشد تعاستها كل الكلمات والنظريات التى أطلقها أمام التلاميذ ! سحب عدداً من جريدة « معاريف » الإسرائيلية .. يرجع تاريخ الجريدة إلى ١٩٥٦ .

* * *

٤ - قصة بعيدة عن موضوعنا

«مهداة إلى شاعرنا توفيق زياد

لتقريره عن مذبحة كفر قاسم بفلسطين..

.. الأرض المحتلة »

« في واحدة من نقط حراسة الحدود فوق أرض فلسطين .. المحتلة».

ميريام : داڤيد

دافيد : هـ ..

ميريام : ولدت . هنا .

دافيد : ما باليد حيلة .. فى أمستردام

ميريام : أأسيان ؟

دافيد : أمستردام .. بلد رائع .

ميريام : كم سنك ؟

دافيد : ما أهمية ذلك ؟

* * *

ميريام : الرواد الأوائل .. لم يولدوا هنا .

دافيد : لأنك ولدت هنا .. لا تشعرين .. هناك استحالة .

ميريام : أى استحالة؟ دافيد .. أنت ولد رومانسى .

دافيد : حدث .. قبل الحرب .. أن زرت أمستردام .. سخرية مريرة أن أقول (زرت).

ميريام : صدقنى .. دافيد .. أى مكان كأى مكان .. كل الأراضى ملعونة .. مضحك أن تكون كأمى ..

دافيد : أعادت ؟

ميريام : ليس إلى هذا الحد .. إنها تحن .. لا تزال .. إلى وارسو.

دافيد : هـ.

ميريام : دافى .. أتقول الصدق ؟..

دافيد : ملعون الصدق .

ميريام : لن أعاود محادثتك عن خرافة العجائز التى اسمها الأرض الأولى .. طالما سمعت أنك رومانسى .. حالم .

دافيد : بقيت دقيقة واحدة لأفرغ الرصاص فى رأسك .. ورأس أمك.

ميريام : حقًا .. فى رأسى لن تستطيع .. قبل الدقيقة لن يكون لك رأس ..

أما رأس أمي .. فلها شرط امرأة لعينة مثلك .. أن تعيدوا جثمانها إلى وارسو .. وارسو العزيزة حسبما تسميها ..

دافيد : هذه النوبة اللعينة لن تنتهى .. لم يبقَ إلا أن يحضر المخربون ليفصلوا بيننا.

ميريام : لقد استُثرت .. صفة أخرى للرومانسى الحالم .

دافيد : أرجوك.. ميريام .. أغلقى فمك ..

ميريام .. نوبتنا حتى الخامسة .. أمامنا بعض الوقت ..

دافيد :...

ميريا : ...

دافيد : (يعبث بالمدفع الرشاش).

ميريام : دافى .. كم كانت سِنُّك وقتها ؟..

دافيد :...

ميريام : أعنى حين أديت الواجب فى ... فى ...

دافيد : ملعونة هذه البلاد .. ستسألينني عن كفر قاسم .

ميريام : لأول مرة أراك تبتسم .

دافيد : كان ٢١ سنة.

ميريام : أحقيقة ما روته بعض الصحف ؟

دافيد : كلاب .. هوهوة فارغة.

ميريام : أكان بالكفر مخرِّبون ؟

دافيد : ليس كذلك .. كانت القيادة قد قررت الهجوم على مصر .

ميريام : كان تأمينًا .

دافيد : تقرر منع التجول فى قرى الحدود .. قبل بدء الهجوم ابتداء من الخامسة مساء .

ميريام : أكان بعضهم .. أعنى العرب .. خارج الكفر ؟

دافيد : فى الرابعة والنصف وصلنا .. كمنَّا على مداخل الكفر .. كل جماعة على رأس مدخل ..

ميريام : دافى .. هل كانوا يعرفون ؟..

دافيد : كيف؟ .. ثم ليست عقبة .. الواجب هو الواجب ..

ميريام : أعرف أنها الأوامر .. لكن كيف حدث بالتحديد ؟

دافيد : فى الخامسة تمامًا .. لم تسمح لأحدهم أن يخالف الأوامر.

ميريام : كم عددهم .. أعنى الذين مروا .. أمامك .. إلى الكفر؟

دافيد : تقصدين الذين لم يمروا .. ليس أكثر من مائة .. بعضهم كان عائداً بمفرده .. آخرون كانوا جماعات .. بعضهم كانوا

يركبون عربة لورى .. أنزلناهم .. كلفناهم أن يصطفُّوا أطلقنا المدافع .. على أقدامهم أولا .. الركب . ثم تلال من اللحم وهكذا .

ميريام : العرب خبثاء لا يعرفون الضبط ..

دافيد : الآن .. نتفق .. أقول سراً لك .. ميريام .

ميريام : الأسرار لا أحبها .

دافيد : خدعنى بعضهم .. الكلاب .. سيارة كان بها ٢٣ عربيًا اوقفنا السيارة .. أمرناهم بالنزول .. أمرناهم فوقفوا صفًا .. أطلقنا النار .. سقطوا تلاً من اللحم .. أحدهم اسمه صالح خليل عيسى .. أصيب .. تظاهر أنه مات .. نجا .

ميريام : بعدها .. سألك صحافى .

دافيد : (لأول مرة يترك مدفعه .. يقف) سخفاء هؤلاء الصحافيون (متخذاً هيئة الممثل .. مخرجًا قصاصة ورق من جريدة قديمة .. لم ينظر إليها)..

الصحفى : اسمك

دافيد : دافيد جولد فيلد .. من قوات حرس الحدود ..

الصحفى : أصحيح أنك لُقِّنت طوال حياتك أن العرب هم أعداء دولة إسرائيل ؟

دافيد : نعم .. لا فرق عندى .. العرب هم أعداء دولة إسرائيل .

الصحفى : أصحيح أنك كنت تشعر أنك إذا لم تنفذ الأمر بقتل كل عربى فى قرية كفر قاسم .. إذا رأيته خارج بيته .. تكون قد خنت الروح التى تثقفت بها فى الجيش وفى قوات حرس الحدود ؟

دافيد : نعم .. هذا صحيح .

الصحفى : لو حدث وشاهدت امرأة فى كفر قاسم بعد الساعة الخامسة وطلبت منك أن تسمح لها بالعبور إلى بيتها بعد عشرة أمتار .. ماذا كنت تفعل ؟

دافيد : لا أسمح لها .

الصحفى : ماذا كنت تفعل ؟

دافيد : أطلق عليها الرصاص حتى الموت .

الصحفى : ولكن لم يكن أى خطر منها : أم أنك كنت تفرِّق وتمتنع عن قتلها فى حالات معينة ؟

دافيد : ما كنت أفرِّق .

الصحفى : كنت ستقتل كل واحد ؟

دافيد : نعم ..كنت أقتل أى عربى .

الصحفى : حتى لو كان طفلاً .

دافيد : نعم .. حتى لو كان طفلا .. ما دام عربيًا.

ميريام : أيضًا .. دافيد .. أيضًا خدعك .. بعضهم .. ذلك آل عيسى .

دافيد : اسمه صالح خليل عيسى .

٥ - في رحاب الملكوت

الجدران العالية .. تحددها الأعمدة المتراصة في صفوف طويلة.. العين تقصر عن الوصول إلى نهاية المجمع المهيب .. آلاف لمبات الكهرباء تضيء في وهج يأخذ بالبصر فلا يكاد يبصر .. شموع .. مباخر يحملها الواصلون العارفون بالناموس وبما يجب وبما لا يكون .. يمرقون بين التجمُّعات مباركين .. يطوحون بمباخرتهم فتنداح سحابات الدخان ، حاملة عطراً من الهند القديمة ومن لحاء أشجار باسقة، تطاول السماء الزرقاء الصافية ، تغطي جزراً وسط المحيط البعيد .. خشب الكافور والصندل واللبان والمستكة .. المبنى تاريخ يضجُّ ويضيق بالذاهلين عن خطايا الأرض .. صفوف الذاكرين المتعبين على رأسهم المنشد خليّ البال والسنّيد .. حلقات قارئي الأوراد .. مهللين .. تهتز جذوعهم حتى لتعجز عين الإنسان عن الوقوف على لحظة يثبت فيها الجذع .. اللهم صلِّ على سيدنا .. عدد الحصى وعدد النجوم وعدد حبات الرمال وعدد ما خلقت وتخلق من الجن والإنسان والطير والحيوان

وعـدد مـاشـئت من شىء بعـد .. آمين .. آمين .. الطوابيـر حـول المقـام تموت أصـابعها على أعـمدته الناعـمة اللامـعـة .. يا ملـبِّى الدعـوات يا قـاضى الحاجات .. مئـات المتعـبدين .. يفضلون أن يقيمـوا الصلة الروحـيـة فـى صـمت وتفـرد وخـفـا ء .. انكبَّ كل منهم على الكتـاب الكريم .. الأب يشق طريقـه .. إن لم تكن لحيـته سودا ء فـاحمـة فـالناس فقط لا تراها .. الأب هدفـه صـاحب المقام .. هو سره ونجواه، ياسيدى لائذ بحماك .. سكنت إلى جوارك .. فى رحابك .. امنح قلبى اليقين .. أعطنى القـوة .. هل تراك منقذى هذه المرة أيضا ؟ .. الابن ابنك منذور لك .. حملتـه اسمك يا قديس شفـيت عينيه طفلاً .. رفعت عنه إصر الحمى صبيًا وطهرته من القروح .. أخذت بيده طوال دراسته ..

على أننى أيها الأمـيـر فى حيـرة من أمـرى هذه المرة .. الكلمـات التى تحمل مطلوبى إليك لا أجدها ..

ببـركـات الرب تقـدر أن تعلم مـا أعـجـز عن قـوله .. أنا لا أعـرف يقـينًا مـا أطلبـه منك ، طنيـبك ألقى بنفـسـه هذه المرة ، فـلا ترده .. لتـكشف، دا ءه وتشـفـيـه .. هل سـعـيـت إلـيك من أجـل ابنـك .. فى العهـد .. أم من أجل نفسى؟ .. أنا لا أحتـمـل .. لا أطيق .. ولا أعـرف الشىء الذى أنخّ عن احتمـاله .. ولا أقـدر أن أطيقـه ، أهو سلامـة الابن أم سلامـة الأب .. إننى أيهـا القديس لا أملك الكلمـات .. احفظ ابنك

.. احفظه لى .. إننا لا نملك إلا الحياة .. نحن شعبك الطيب على كلماتك نشأنا .. فى ملكوتك حبونا نحن أطفالك .. لا تكتب علينا الشدة.. عصا الخولى احتملناها .. شتائم ناظر الوسية كفرت بعض خطايانا التى لا تُعَدُّ .. لكن ابنك .. نؤمن أن مملكتك فى الأعالى .. لكن ابنك .. نعرف أن جنتك جعلتها للمتقين .. وللشهداء عندك مقام عظيم .. أوه ياشيخى .. ألا يصل ابنى إلى الجنة إلا عن طريق الاستشهاد ؟ .. إنى لا أطيق .. لا أعرف ما الذى لا أطيقه .. إنى خجل من نفسى .. أعرف أن الابن وديعة ..

استرِدَّنى أنا قبلاً .. هل تفهمنى؟ .. الغفران .. لا تؤاخذنى . يكاد مطلبى أن يوقف حركة الكون .. لا أعرف لم .. إن دنيا الشرور لا تقاس إلى الحياة فى جوارك مع القديسين .. لكن الابن احفظه .. عرفت الآن كل هلوساتى .. إنى ألف وأدور .. عندك علم السرائر وأَخْفَى .. خلصنا من كل خطية .. إنى أمسك رمزك بقلبى على صدرى .. الأب يذوب فى غمرة وجد .. لا يفرق بين سلامته وسلامة ابنه .. الشعرة دقيقة .. كل من السلامتين متخفية فى الأخرى .. إذا كانت الحياة فى جوار الملاك لا تقاس .. بدنيا الشرور لم كل هذا الخوف من موت ابنه .. أجداده لم سمُّوه باسمه .. لم يقولوا الموت .. اسموه السفر .. عقل الأب يسير مع منطقه لكن هناك داخله يكمن رعب بشع .. خوف ضارّ .. الابن .. الحياة .. الموت .. جذبته همهمات

تنبعث من جنبات الجمع المهيب .. حلقات .. صفوف .. مقاعد .. متفردون .. عمائم بيضاء وسوداء وخضراء وحمراء وزعابيط وكواكيل وعباءات وبرانس .. الهمهمة فى أذنيه ترتفع .. تكاد الأصوات أن تتجسد فى فضاء المبنى .. أجساد لا يحدها حصر .. أصوات عفية قوية .. أصوات تكاد أن تفتِّت جدران المجمع الصخرى العتيق .. لكنها أصوات لا تصل إلى سرب النمل الذى يشق طريقه إلى المقصورة المقدسة .. يوم الدينونة أو يوم الحشر أو يوم الحساب .. الميزان .. الأصوات الزاعقة تتجمع .. تتجمع .. يا الله .. ارفع غضبك عنا .. حقق لنا وعدك الذى وعدته .. انصرنا .. انصرنا نحن خير أمة أخرجت للناس .. نحن ملح الأرض .. نحن شعبك المختار .. إنك تعلم ما نحتاج إليه قبل أن نسألك .. انصرنا على أعدائك .. أعداء الدين .. يا .. يا .. كير .. ياليسون .. كير ياليسون .. كير ياليسون .. يا أرحم الراحمين.. يا رب الجنود .. يا رب إله الجنود .. آمون .. آمون .. فى أذنى الأب .. الأصوات مدوية تشرخ الصخر تهز جدران المبنى المهيب .. الأصوات زاعقة تكاد تطفىء نور المصابيح والشموع وتمتص البخور .. الأب . رعب كامن فى داخله .. خوف ضارٌ يلفه .. تسلل خارج المبنى العتيد .. يحاول أن يتأمله .. لا يكاد يراه .. الأصوات تندلق من الأبواب وفتحات النوافذ ومن خلال الجدران .. أصوات لو تُرجمت لأصبحت عاصفة تكتسح جبلاً أمامها .. على أنها

لم تصل إلى سرب النيل .. يتسلل فارغ العين لا مباليًا إلى المقصورة .. الأب كبير القلب غاب داخل حارة صغيرة ضيقة .. يلفها ويلفه ظلام ثقيل .

٦ - عبور حلم الواقع

- ١ -

النجوم فى السماء مصابيح صغيرة خلف فاترينة زجاج مغبّشة .. النهر المقدس .. يجرى كفرس سباق يفصل بين دنيوين .. الأمان والحياة ثم على الجانب الآخر كل خطوة تعنى ميتة .. الخطوة التى لا تموت فيها تندهش ولو لاحظ الأب قدميه لأصابه الشلل .. وراء الدليل .. عبروا المخاضة .. مخاضة النهر .. نهر الأردن . هذه هى فلسطين المحتلة .. الأب يتحسس مندفعه .. يمر بسبابته على الزناد .. المدفع يصيب ويحمل الموت إلى العدو .. لكنه لا يحمى حامله .. تلك آفة . كاد أن يجرب سرعته فى الانبطاح أرضًا .. فى كل لحظة ينتظر الرصاصة .. ليس الرصاصة .. سيل الرصاص الذى يخترق جسده .. جسده كله مباح لسيل الرصاص .. على أن رصاصة واحدة كافية .. لم يكتشف قبلاً أهمية هذا الجسد ، إنه هو ، لا شىء غير الجسد .. أو أن الجسد شرط ليكون الإنسان أى شىء .. خنزيراً يربى خنازير أو ثائراً يدفع حياته

خلال جسده .. إن الجسد شرط الإنسان .. لكن الإنسان قد يكون أعظم من الجسد بكثير .. انذار الدليل عائداً .. كاد الأب أن يحسده .. قائد المجموعة فى الأمام .. الأب وراءه مباشرة .. ثم الرفيق الثالث .. من أين سيأتى الرصاص؟ .. الأب ود شيئًا واحدا .. أن يقف لحظة .. يلتقط أنفاسه .. أن يعدد الاحتمالات .. جسده كله مباح لرصاص يخترق الصوان .. أحس فجأة أن قدميه تكادان تتعثران فى تفكيره .. عليه أن يختار بين أن يسير وأن يقف ليفكر .. قائد الجماعة خطواته ثابتة متقدمة حذرة .. يمرق أمامه بين شجيرات الصبار كالفهد .. إذا صعد صخرة لا يزحف عليها مهما علت .. يضع قدمه اليمنى على قمتها .. ينسل جسده كله صاعدا .. لا تعرف ما إذا كانت الصخرة تنخ له أو أنه يصعد إليها .. فور عبوره المخاضة .. مخاضة النهر .. نهر الأردن المبارك .. الأب يشد نَفَسًا عميقًا .. علا صدره .. همهم .. المجموعة تتوغل داخل الأرض .. الهدف يعرفونه تحديداً .. تدمير مضخة المياه.. من بعيد يسمعون أصوات طلقات رصاص .. أصوات طلقات تتتابع .. كمنت المجموعة .. الأب جسده قطعة من الأرض .. ومن الليل ومن الريح .. انفجر على البعد فانوس .. قطعة من الليل الأسود اشتعلت بفانوس الضوء .. الطلقات تتتابع دم الابن لا بد يسيل .. همهمة بين الرفاق .. العودة أم المضى ؟. قوات حرس الحدود لا بد الآن منتبهة .. دم الثائر ليس كمًا زائداً .. مقابله الوحيد أن تستقيم

الحياة للناس .. العودة أم المضى؟ .. الليلة يجب تدمير مضخة المياه .. إن أمكن تدمير الهدف لا يهم ما يحدث بعد ذلك .. الهمهمة تستمر .. كان القرار .. الانتظار حتى يسكت صوت الرصاص فى اتجاه الجنوب .. توزعت العيون والآذان والأجساد كلها .. الليل جدار أصم أبكم .. لكنه سائر أيضًا .. هبَّات نسيم تحمل رائحة ثمار البرتقال واليوسفي والليمون واللارنج .. فى أنفَىْ رفيقيه متميزة رائحة ثمار البرتقال عن رائحة أوراق الليمون عن رائحة العطن الخفيف الآتى من غيطان الموز .. عاودته صورة الابن .. صور جسمه .. أعضائه .. عضواً عضواً .. جسد الابن على سريره السفرى الصغير فى القرية البعيدة .. تحسَّس الأب مدفعه .. جنزير الطلقات يلفه حول رقبته أمتارا .. الابن الآن يكن وراء مدفع هو الآخر .. الأرجوحة القديمة تلف داخل رأس الأب .. قدم فى فردة حذاء .. رأس داخل خوذة .. الرمال التى لا ترويها سيول الماء .. دم الإنسان كوزان أو ثلاثة .. طلقات الرصاص في الجنوب لا تتوقف .. الريح التى تحمل رائحة البرتقال تحمل صوت الرصاص .. دون أن يشعر الأب متى حدث .. دون أن يلاحظ البداية.. كان الإحساس داخله كائنًا كاملاً .. أمس بمدفعه .. مر على جنزير الطلقات .. أحس فجأة أنه لا يهمه أو بالتحديد لا شيء .. لا يهمه شيء على الإطلاق .. رصاص العدو لا يهمه .. ألغامه . قنابله .. لا شيء يهمه أو بالتحديد لا شيء يخيفه

.. القبضة الخانقة القاتلة التى كانت تعصر أنفاسه وتمتد داخل صدره توقف نبض قلبه وتشل عقله .. القبضة البشعة افتقدها .. أحس براحة تسرى فى كيانه كله .. الكيان إياه الذى كاد أن ينسحق فى حارة جانبية مظلمة وشلالات الأصوات تطارده .. شرب جرعة ما .. عاودته كغثيان مراسيم فناجين القهوة .. أخذته حيرة عميقة .. هنا الإحساس بالارتياح أوضح .. مشاعره .. شعر برغبة جامحة أن يطلق ضحكة مجلجلة فى الفضاء الزيتونى المغبّش .. ضحكة لا تعرف الخوف أو التخويف أو الرهبة والترهيب .. ضحكة لو صاغها فى كلمات لكانت دعوة للعدو .. أنا هنا .. أنا لا أتسلل إليك ولا أختبئ عنك .. هذه أرضى .. أنا مهاجمك لأقتلك قصداً أو لتقتلنى ولا غير ذلك .. إننى إن لم أقتلك فأنا مقتول لا مهرب لك ولا مهرب لى .. لن يبقى هنا سوى واحد منا .. لا خيرة لك ولا خيرة لى .. أحدنا لا بد أن يذهب حتى يبقى الآخر .. إننى إذ أقتلك أقتل داخلى تاريخًا طويلاً من الخوف والسلام الكاذب.. التركيبة الفكرية التى كادت أن تتحطم والزوجة تطالبه أن يدعو للابن بالسلامة استقامت تمامًا .. لا سلام مع الأعداء .. لا سلام مع كل الأعداء .. عفواً يا شيخى ويا قديسى .. عفواً يا متون الأهرام العزيزة .. الأب التفت لينقل إلى قائد المجموعة التكشفات غير المنطوقة التى ومضت داخله .. إنه غير خائف.. لا شىء يضيفه على الإطلاق .. لم يصدق لأول وهلة .. حدّق بعينه .. كان رفيقه الثانى غافيًا هل معقول .. لكزه بخفة .. خُيِّل إليه أنه يبتسم .. كيف يا

أخ؟ .. أتنام؟ .. ما غرابة هذا .. أجاب الرفيق .. ألم يحدث أن نمت على صدر أمك؟ .. لو حدث وكانت فى السجن .. هل ما يمنع أن تحتضن صدرها ؟ هل تنسى؟ .. إننى على أرض فلسطين .. إننى هنا لشىء أكبر من الحرب ومن القتال.. إننى هنا لأحمى ترابها بصدرى .. اهتزت الأرض من تحتهما .. تحولت العيون صوب الشمال .. كان واضحا أنها معركة بالأسلحة الثقيلة .. مواجهة واحدة من نقط مراقبة العدو .. انطلاقات النار ترج الأرض .. كانت همهمة .. كان قراراً بالتقدم .. باقٍ نصف ميل إلى الأمام .. المضخة شمال المستعمرة .. حقل البرتقال الكبير بجواره المستعمرة .. المضخة ترقد مطمئنة .. تقدم رفيقه نحو الهدف يحمل العبوات الناسفة .. قبل أن ينسحبوا .. انفجار آخر غطى على انفجارهم . كان الآخر مدويًّا .. همس قائد المجموعة .. ذلك مصنع الـ ... علينا أن نستعد أكثر .. ليس لقوات حرس حدود العدو أو جنود نقطة المراقبة .. لقوات من جيش العدو .. المنطقة كلها ستحاصر .. دقائق وكانت المنطقة كلها مضاءة .. طائرات العدو تلقى قنابل الضوء .. فى لمحة اكتشفت المجموعة أعداداً من قوات العدو .. هل اكتشفتهم قوات العدو بدورها ؟ ... لم تعد الآذان تسمع .. لم تعد العين ترى .. أين رفيقاه؟ .. مد يده ووقعت على غطاء المصباح الكهربائى فوق الكومودينو بجوار سرير نومه .. ريح الأقيانوس تهب عليه ترج زجاج الأبواب والشبابيك .. أين المدفع .. يتحسسه .. هذه ليست خشبة مدفع .. خشبة سرير النوم ..

- ٢ -

أب : إنها خشبة المدفع ..

صوت : وهم .. هذه خشبة السرير .

أب : أنا نجوت من السرير وفناجين القهوة الصامتة إلى جوار الراديو .

صوت : لا تصدق هواجسك.

أب : أنا تخطيت الهواجس .. عشت الخوف ذاته ..تخطيته .. أحسست بالسلامة وسط النار .. وسط الخطر .

صوت : وهم .. كحياتك الطويلة .

أب : أيها الشيطان .. أنا تخليت عن بليغ الكلام .

صوت : وهم .. كحياتك الطويلة .

أب : أيها الشيطان .. أنا تخليت عن بليغ الكلام .

صوت : أنت عشت بالكلام .

أب : أنت ضدى .

صوت : هذا داؤك .. معك وضدك .. كأنك مركز الكون .

أب : أنا رب أسرة مسئول عن سلامتها .

صوت : إنك حافظت على سلامتك .

أب : أنا عشت دائمًا لرسالتى .. أن أربى ابنى وأرعاه ..

صوت : رسالتك أن تحافظ على سلامتك .

أب : أنا قدمت المثل .

صوت : أنت قدمت المثل للأنانية والتضحية بكل شىء فى سبيل ذاتك .

أب : لا تستطيع أن تتهمنى بالخيانة .

صوت : أنت الذى قلت .

- ٣ -

الصباح الباكر .. قرص الشمس يطل من وراء جناحَى النسر ورأس الحية .. ضوء الشمس يدفع أمامه ظلال بيوت منف وقصور طِيبة وأكواخ راقودة .. زُرَّاع سنابل القمح والشعير يتأملون زهرات الحلبة والفول والعدس .. يسوقون محراثًا يشده ثوران أسودان .. يغنون لفصل الفيضان .. يتحدثون عن بناء مسقر الإله (مينا) .. أمواه عذبة تترقرق بين حضنى النيل .. أمواه صافية كعين الديك . تتسلل إلى ترع وقنوات تغطى الدلتا .. ولد صغير فرد طوله وانبطح على صدره .. تلامس شفتاه ماء قناة صغيرة، يرتشف ويرتوى .. فى القناة تسير المياه على مهل .. كخطو الثيران المرهقة .. لم العجلة؟.. فلتمر ستة آلاف سنة .. هل يكفى ..

- ٤ -

على طريق مرصوف عتّال يرقد فوق صفوف من زكائب قمح تنطلق بها عربة كبيرة إلى الإسكندرية ... فروما .. ثم القسطنطينية .. ثم انتهت إلى مراكب تحملها جنوبًا إلى أم القرى مكة المكرمة التى بها خير بيت أخرج للناس .. العتال تأخذه سَنَة طويلة من النوم .. يتدحرج إلى حافة العربة المنطلقة تسابق الريح .. قدماه تتدليان ..

- ٥ -

أب عظيم يتربع على شلتة إلى جوار راديو .. عيال يقدمون له فنجان القهوة .. تقديم فنجان القهوة له مراسم وطقوس . الانحناء حتى ملامسة الأرض .. إذا كانت الجنة تحت أقدام الأمهات فإن مفاتحيها فى جيوب الآباء وتحت أضراسهم .. تناول الأب العظيم كوز ماء .. الكوز لا يذكّره بشىء على الإطلاق ، لا دماء ولا صحراء ولا رمال .. جرعه بتؤده ووقار .. النقطتان المتبقيتان فى الكوب سكبهما بهدوء وحذر فى فنجان القهوة .. رفع الفنجان بمهابة .. ملأ .. خياشيمه برائحة الحبهان .. تذكر أمراً جللاً .. أخرج حُقّ العنبر فتحه بطرف عود من أعواد الخلة حمل قمحة العنبر .. مد شفتيه العظيمتين .. جذب رشفة لاكها بين فكيّه .. يتلذذ ويتلذذ ما أروعها الحياة وما أبعد نعيمها! .. سمح لرشفة القهوة أن تتسلل ببطء عبر الحنجرة والبلعوم ..

أحس أن كل شيء على ما يرام .. برز أمام الأب حفيد صغير .. ذُعر الرجل .. إن أوامره إلى العيال : لا تناسل .. الملاعين لا ينصاعون لأوامره ونواهيه .. الحفيد يتأمل الجد ، كما يتأمل خنزيراً .. الأب الجد يحدق بعينيه إلى الحفيد ليخيفه .. الحفيد لا يعرف أن التحديق للتخويف .. الحفيد يقتحم على الجد عالمه .. يأتى الفاحشة الملعونة .. يسأل الجد عن الشيء الذى دسه تحت لسانه ..

- اخرس يا كلب.

على أن الصغير لحظتها كان يبول ..

وكلمة .. تذييل

١٩٦٧ وعقابيلها والإعصار الذى دمّر كل شىء .. وهو يقابلنى فى كل صفحة كتاب ، وفى كل وجه فى الطريق وفى كل فكرة ، داخل الحصار الذى وضعنا فيه وخارجه يا سيدى، إن كل شىء من صنع أيدينا ، هل أتخلى عن التحرى، وأقول من صنع يديك ، يا مَن انتميت إلى الفقير، لم تتخلَّ عنه، يا لبرودة هذه الكلمات بعد قرابة ربع قرن : كان ذات يوم نارا موقدة فى العقل وفى القلب وفى الروح ، ولا من هاد .

وكان على الأدب ، وسط العاصفة ، أن يتحسس ، مقوده قبل وبعد مقوماته، الضمير .

وكانت « الشمس فى برج المحاق » ..

... حين قرأها ، آنذاك، ٦٩، أستاذى العزيز محمد عودة، مد يده بها إلى من يجالسنا ، قائلاً له « اقرأ أدب الثورة المضادة ».

... حين قرأها، المسيو جلبرت دى لانو، أستاذ الأدب العربى بجامعة أكس دى بروفانسى بفرنسا ، صاح قائلاً : « آه .. إنها خمسة فى واحد » مستغلاً مفردات اللاهوت المسيحى .

وفى سنة ١٩٦٩، كان الصديق الأستاذ رجاء النقاش ، رئيس تحرير مجلة « الهلال» وكان يعد عدداً عن « القصة » ودفعت بها إليه، وقرأها ، وأحالها إلى الرسام وإلى المطبعة ... ثم اتصل بى لمقابلة مندوب الرقابة ، آنذاك ، بدار الهلال ، وقابلت مندوب الرقابة ، وفهمت منه، وجود « رقابة عامة » وأنها تعترض على بعض الجمل، وخلافًا لمواقف سابقة، ولأنى كنت أريد نشر القصة، وافقت ، واتفقنا على أنه سيعود إلى رقابته العامة، ثم نلتقى ، وحين التقينا ، طلب رفع جمل أخرى وتكررت الحكاية ، ثلاث مرات، وفى الثالثة وقد كان رجلاً مهذبًا، اعتذر أن الرقابة العامة ، لا توافق على نشر القصة، لأنها كلها «ملغمة».

واعتذر الأستاذ رجاء النقاش وحرر لدار الهلال أمر دفع عشرة جنيهات، وقال لى مبتسما : إنت ذنبك إيه؟ وحملت السلخ بعد أن شُطبت منها الجمل التى طلبت الرقابة حذفها ، إلى جريدة المساء، حيث كان الصديق الأستاذ عبد الفتاح الجمل .. وقصصت عليه ما حدث ، وحملها إلى مطبعة جريدة المساء، وفى ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠، نشرتها جريدة المساء على صفحة كاملة ونصف صفحة ، ولم أعثر أبداً على الأصل الكامل للقصة، على أن القصة، المنشورة .. باقية باقية .

... حزمة ألوان

.. قادم من نهاية شارع .. لا أعرفه تحديداً .. لعله شارع الشيخ سلامة حجازى .. حى السيدة زينب .. سكنته عَزَبًا .. لكنى، فجأة .. وجدته أمامى .. دكان أولاد شعبان .. يقع على ناصية فؤاد الشوربجى، الذى أقطنه ، ويفتح على شارع المحطة .. الأميرة فوزية سابقًا .. بالجيزة .. براميل الزيت .. زيت التموين .. بضائع كثيرة مرصوصة أمام الدكان .. فى الطرف .. طرابيزة خشب قديمة .. عليها العروسة .. بيضاء .. التحالى تحيط برأسها .. عروسة من موسم مضى .. لا أعرف كيف .. أُسقط فِىَّ .. أنها تبكى .. أحسست بانقباض .. انقباض داخلى .. أن المشاهد والمشاعر تبرز .. تتبدى .. لا أملك لها، جليًا أو دفعًا .. نبت فى وعيى أن سى محمد ، ابن صاحب البقالة ، أو صاحبها، بعد أن تقاعد أبوه ، وانفرد هو بالدكان .. سى محمد سيذبح العروسة .. المرئى الذى يمر .. المشاعر التى تنبثق .. يمتحان - مع ذلك - من خبرات .. فى المرات العديدة، التى وقفت فيها ، مستكينًا، أشترى من دكان سى محمد ، كنت أراها .. معفرة قليلاً، لكنها تعمر بالود والألفة ، الرف الذى تقف عليه .. لا أعرف متى ..

لكن سى محمد، آخر حبها من موطنها ليذبحها .. كانت تعرف أنه سيذبحها .. أنمتها على صدرى .. أراحت خدها على صفحة خدى .. خدها ناعم طفولى آسر .. لكن بكاءها يذبحنى .. يدمى داخلى .. لا أعرف كيف .. أحسست أنها تحوطنى بذراعيها .. خفيفة .. دافئة .. ودوداً .. حَيَيَّة .. تدفع إلى معرفتى .. تلك التى لا أملكها .. إنها حمامة بيضاء . الشعر الأصفر ما زال يتخلل ريشها .. كالست المستخبية ، حملتها .. قصدت سى محمد .. لكن - هذه المرة - كان يرص قطع حلاوة الموسم الجديد، تحسست جيوبى .. أعرف .. قبل أن أنام .. كان بها قرشان .. ثمن حلاوة لولدى الاثنين .. لم أتردد .. أخرجت قرشًا دفعت به إلى سى محمد، لا أتذكر أنى تكلمت .. لكنه عرف أنى أريد بالقرش ، حلاوة للعروسة التى أحملها على صدرى ، والتى أحس إنها تلف ذراعيها حول وسطى ، وتنيم خدها على صفحة وجهى، وأنها تبكى .. لا أتذكر أنى تكلمت ، لكنى عرفت أنه ، عرف أنى أشترى الحلاوة للعروسة التى يملكها، أخذ القرش .. آليًا ألقى به فى الدرج .. لم يعطنى الحلاوة من فوره .. انصرف عنى .. كما يفعل مع كل زبائنه ، لا أعرف كيف عادت إلىّ واقعة قديمة .. طلبت منه شفرة حلاقة ، همهمت بكلمات خافتة، من الممكن أن يفهم منها أنى سأنقده الثمن أول الشهر ، لم يقل شيئًا .. لم يبد عليه أنه سمع .. لم يتحدث .. لم يجعلنى أفهم أنه قبل الصفقة .. كان يقبض فلوسًا من

الزبائن المتزاحمين .. يلقى بفلوسهم فى الدرج .. يعيد إلى زبون باقى ورقة مالية كبيرة .. يشد ، دون اهتمام، من فتاة صغيرة ، نوتة زرقاء متسخة ، يقيد فيها ثمن علبة سجاير، ويسألها عن عدد الأرغفة التى أخذتها .. يلقى إليها بالنوتة قذفًا .. هو يروح ويجىء .. فتح الدرج .. أخرج علبة شفرات الحلاقة .. ترك شفرة على الرخامة التى تفصله عن الزبائن .. بعدها ، أو قبلها ، أو معها ، فالزمن ساقط ، البارز أن الشهر رمضان ... طلبت منه علبة مسلى .. همهمت بما قد يفهم منه ، أنى سأنقده الثمن أول الشهر، لم يقل شيئًا .. لم يبد ، عليه أنه سمع .. لم يتوقف .. لأول مرة، ألاحظ أنه بلا سُمْكْ، أنه يروح ويجىء ، لكنه لا أعرف كيف، كان يقبض الفلوس ، يقذف بقطعة الجبن لصغيرة ، بعلبة سجائر إلى أفندى ، يرد باقتضاب نافيًا وجود فكة معه، يروح ويجىء ، هو وسط حركة دائمة دائبة ، يعدُّ باقى ورقة مالية لفتاة صغيرة ، قبل أن يرجع إلى الأرفف ، دون أن يوجه الكلام إلىَّ .. نفى وجود مسلى فى دكانه .. فى سرعة .. الحديث ليس لى ، لم أستطع أن أنصرف من وسط الزبائن ، لم أستطع أن أقف معهم، حففت بالصغيرة التى كانت تجمع فلوسها ، بصوت خافت مستكن ، اعتذرت إليها، التفتت ، كنت قد أنسحبت .. هذا هو دائما .. القرش ألقاه فى الدرج.. يرص قطع حلاوة الموسم .. ناسيًا أو متجاهلاً أو مسقطًا ، أنى نقدته قرشًا .. منصرفًا عنى تمامًا .. هذه المرة كالدفء يلمُّ بالجسد، لا

أشعر بضيق .. ما زال إحساسي بخدها، ألمٌ

يلمٌ بي لبكائها .. دون أن أتوقع ناولني قطعة حلاوة حمراء .. لا أعرف كيف .. قدمتها للعروسة .. كفت عن البكاء .. أعدتها إلى موضعها على طرابيزة الخشب القديمة .. لا أعرف كيف ، نابت فيَّ، كان هو يعرف أنه سيذبحها ، وكنت أعرف أنها سيذبحها .. لكنها هي كفَّت عن البكاء ، حين كنت أواصل سيرى فى شارع الشيخ سلامة حجازى .. بحى السيدة زينب .. إلى حجرة السطوح التى أسكنها .. ولا أعرف كيف .. أحن إليها ..

محمد روميش

٢٢ أكتوبر ١٩٧٠

المراجعة اللغـوية : **محمود عبد الرازق .**

الإشـــراف الفنى : **راندة عبد الكريم .**



كتبت هذه المجموعة القصصية معاصرة لأحداث نكسة ١٩٦٧ حتى وصفها الأستاذ محمد عودة بأنها نموذج يمثل " أدب الثورة المضادة ". فهذه المجموعة تقطر بآلام وإحباطات الهزيمة، وتغوص داخل النفس المصرية لتكشف ما حاق بها في تلك الفترة .

